المرحلة :الأولى
الفصل : الثاني

المادة : عصر الرسالة
عدد الساعات: ٢

مفردات المنهج

١. البيئة العربية للرسول والرسالة .
٢. حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ الولادة وحتى البعثة .
٣. الدعوة الاسلامية في موطنها الاول .
١- مبادئ وتعاليم الاسلام الاولى .
٢- سرية الدعوة الاسلامية .
٣- علنية الدعوة الاسلامية وعوامل مقاومة المشركين لها .
٤- اساليب مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية .
٥- ابعاد الصراع بين المسلمين والمشركين .
٤. البحث عن موطن جديد للدعوة الاسلامية .
١- محاولة نشر الدعوة الاسلامية في الطائف .
٢- عرض الدعوة الاسلامية على القبائل العربية .
٣-بدء انتشار الاسلام في المدينة .
٤- بيعة العقبة الاولى .
٥- بيعة العقبة الثانية .
٦- الهجرة الى المدينة .
٥. دولة المدينة .
١- سلطة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة .
٢- تنظيمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة .
٦. دولة المدينة والجهاد في سبيل الله .
١- بدء الغزوات والسرايا
- معركة بدر ونتائجها .
٣-معركة احد .
٤- غزوة الخندق .
٧. امتداد دولة المدينة وسيادة الاسلام .
١- صلح الحديبية
٢- التوجه لقتال خيبر وحلفائها في الشمال.
٣- معركة مؤتة
٤- سيادة الاسلام في مكة .
٥- معركة حنين وحصار الطائف .
٦- حملة تبوك .
٧- عام الوفود (سنة ٩)
٨- حجة الوداع
٩- نهاية عصر الرسالة .

الكتاب المعتمدة : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة . ا هاشم يحيى الملاح

جامعة ديالى
كلية التربية الأساسية
قسم التاريخ

عصر الرسالة

المرحلة الاولـــــى

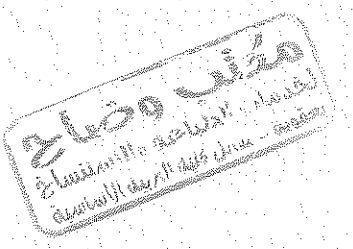

٢٠١٧

١. الحياة الاجتماعية والسياسية في مكة :

تقع مدينة مكة في واد منبسط ، غير ذي زرع ، تحيط به الجبال من كافة الجوانب في وسط بلاد الحجاز، وقد ساعد على نشأة الحياة في هذه المدينة وجود بعض الآبار فيها وأبرزها بئر زمزم ، هذا فضلا عن وجود الكعبة التي يقصدها الناس للحج والعبادة ، ووقوعها على طريق القوافل التجارية التي تربط بين اليمن والشام والعراق ، مما مكّن أهلها من الاشتغال بالتجارة وتقديم الخدمات للقوافل المارة بالمدينة.

ولاتزودنا المصادر التاريخية بمعلومات واضحة عن الحياة في مكة قبل استقرار قبيلة قريش فيها في حدود منتصف القرن الخامس للميلاد ، أي قبل ظهور الرسالة الاسلامية بحوالي مائة وخمسين عاما(١٠٢) .

تنتسب قبيلة قريش الى عرب الشمال العدنانيين ، وقد نشأ قصي الذي غدا فيما بعد زعيماً لقريش في مشارف بادية الشام بعيدا عن قومه بسبب وفاة والده وزواج أمه من أحد رجال بني عذرة . وبعد أن بلغ قصي مبلغ الرجال انتقل الى مكة وتزوج من ابنة زعيمها حليل بن حبشية الخزاعي . وقد استطاع قصي ان يمهد لنفسه طريق الزعامة من خلال توثيق صلاته مع قومه وغيرهم من العشائر المحيطة بمكة . وبذلك تمكن من تولي زعامة مكة بعد وفاة حليل الخزاعي . وقام بطرد قبيلة خزاعة من مكة حينما عارضت زعامته للمدينة وأحل محلها قومه من قبيلة قريش الذين كانوا يعيشون حياة البداوة في تهامة وفي أطراف مكة وبذلك أصبح غالب سكان مدينة مكة من ابناء قبيلة قريش (١٠٣) .

وبذلك أصبحت السيادة المطلقة في مدينة مكة لقبيلة قريش ، ولم يعد امام ابناء القبائل الأخرى التي كانت تعيش فيها اوالتي تتطلع للعيش فيها سوى التحالف مع قبيلة قريش وقبول سلطتها على المدينة . (١٠٤)

وقد ذكر ان قصيا قام بتقطيع «مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ؛ ويزعم الناس أن قريشا هابوا قطع شجر الحرم من منازلهم فقطعها قصي بيده واعوانه فسمته قريش مجمعا لما جمع من أمرها» .(١٠٥)

---

(١٠٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٠٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ، ص ١١٧ – ١١٨ .

(١٠٤) لمزيد من التفصيل ، يراجع بحث الدكتور خالد العسلي : دور اجداد الرسول (ص) في مكة ، مجلة تربية البصرة ، العدد ٦ / ١٩٨١ .

(١٠٥) ابن هشام السيرة ، ق ١ ص ١٢٥ .

وقد عرفت البطون القرشية التي أسكنها قصي في بطاح مكة بقريش البطاح ، وكانت تضم غالب ابناء قبيلة قريش ، وقد اجتمعت بأيديهم الثروة والسلطة وذلك لقيامهم على أمور الحج واشتغالهم بالتجارة. أما بقية البطون القرشية فقد نزلت في أطراف مكة وقد عرفت بقريش الظواهر، وكانت تغلب عليهم حياة الفقر والبداوة وقد سكن معهم ابناء القبائل العربية التي تحالفت مع قريش من كنانة وغيرها فدعوا بالأحابيش.(١٠٦)

ولاتزودنا المصادر التاريخية بمعلومات حول عدد سكان مكة ، وليس بين ايدينا من القرائن مايساعد على تخمين عددهم في زمن قصي بن كلاب. غير ان القوائم التي أوردتها كتب السيرة النبوية عن عدد الرجال الذين خرجوا منها لقتال الرسول (ص) في معركة بدر على سبيل المثال تعين على تقدير مجموع سكان مكة في عصر الرسالة ، والذي يبدو أنه كان بحدود أربعة آلاف نسمة(١٠٧).

لقد عمل قصي حينما تمت له السيادة على مكة ان يمسك بالوظائف ذات الطبيعة السياسية والادارية والمالية «فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كلّه»(١٠٨) كما يقول ابن اسحاق.

وعلى الرغم من أن بعض هذه الوظائف كانت لاتخلو من بعد ديني كالحجابة فان الطابع الاداري والمالي كان هو الغالب على مايبدو. أما الوظائف ذات الطبيعة الدينية البحتة التي كانت متصلة بمناسك الحج كالاجازة بالحج والافاضة من جمع غداة النحر الى منى والنسيء للشهور الحرم فقد ابقاها بيد اصحابها القدماء وذلك لأن قصيا كان «يراه دينا في نفسه لاينبغي تغييره»(١٠٩).

وقد استحدث قصي بعض الوظائف الجديدة في مكة من أجل تنظيم ادارة المدينة وتحسين علاقاتها الخارجية مع ابناء القبائل العربية الذين يفدون الى مكة في موسم الحج. وقد بقيت هذه الوظائف قائمة حتى مجيء الرسالة الاسلامية. وسنتحدث فيما يأتي بشيء من التفصيل عن هذه الوظائف :

---

(١٠٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٧١ ، العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ١٠٨.

(١٠٧) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ، ص ٦١٧ ، يراجع بحثنا : ثروات اهل مكة في عصر الرسالة ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٤٣ ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٠٨.

(١٠٨) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ١٢٥.

(١٠٩) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ١٢٤ ، العلي : محاضرات ، ص ١١٢.

أ. دار الندوة :

لقد كانت التقاليد القبلية عند العرب تقضي بأن على شيخ القبيلة أن يشاور رجال الملأ من قومه في كل ماله صلة بأمورهم العامة. وكان رجال الملأ يتألفون عادة من رؤساء العشائر والأسر وبعض الأفراد الذين تقدمهم سجاياهم الحميدة من افراد القبيلة.

ويبدو أن قصيا أراد تنظيم المشاورة بطريقة تجعلها قاعدة ثابتة لادارة شؤون مكة. فقام ببناء دار الندوة، وجعل بابها الى المسجد الحرام، ربما من أجل منح هذه الدار ومايدور فيها من أمور نوعا من الحرمة والقدسية. فكانت هذه الدار بمثابة دار الحكومة الذي تدار فيه امور قبيلة قريش كلها «وما أرادوا من نكاح أو حرب او مشورة فيما بينهم»[١١٠]. كما كان يتم في دار الندوة الاعلان عن بلوغ ابناء القبيلة وبناتها سن الرشد. كذلك فقد كانت الدار المركز الذي تنطلق منه وتعود اليه القوافل التجارية.[١١١]

ولم تزودنا المصادر بمعلومات عن كيفية اجتماع رجال الملأ في دار الندوة ولا الأسلوب الذي تتخذ فيه القرارات، ولكن نظرا لبساطة المجتمع في ذلك الوقت، يبدو أن الاجتماعات كانت تتم بصورة تلقائية وعند الحاجة، وان المناقشات في دار الندوة كانت تتم بحرية بعيدا عن الاجراءات والشكليات. وقد كان الهدف من كل ذلك هو الوصول الى قرارات تنال موافقة الجميع. ولم تسعفنا المصادر بمعلومات عن الاجراءات التي كان يسلكها رجال الملأ لحل خلافاتهم في حالة عدم حصول الاجماع، وهل تلتزم الأقلية برأي الأغلبية كما هو الأمر في ظل الأنظمة الديمقراطية.

يبدوا أن العرب لم يعرفوا نظام التصويت الذي يعطي الأرجحية لأغلبية الأصوات. ويظهر من استقراء طبيعة الممارسات السياسية في مكة في عهد قصي بن كلاب أنه في حالة الاختلاف فان الرأي الراجح هو الرأي الذي يكون الى جانبه الرئيس، فقد ذكر ابن اسحاق أن قصيا كان «لايخالف، ولايرد عليه شيء صنعه»[١١٢]، وذلك لمكانته الكبيرة بين قومه واحترامهم العظيم له حتى أن «أمره في قومه من قريش في حياته، ومن بعد موته كالدين المتبع لايعمل بغيره»[١١٣].

---

(١١٠) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٢٥.
(١١١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٠.
(١١٢) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٢٠.
(١١٣) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٢٥.

أما بعد قصي ، فلم يظهر زعيم في مكة يحظى بمثل هذه المكانة التي حظي بها في قومه. فكان رجال الملأ متناظرين في مكانتهم وحقوقهم. ومن ثم كان من الضروري الحصول على موافقة الجميع على القرارات التي يراد لها الاحترام والتنفيذ. لقد كانت هذه المسألة نقطة ضعف كبيرة في نظام الحكومة المكية ، فقد بذل رجال الملأ المكيون جهودا كبيرة عند اتخاذ القرارات المهمة في المناقشات والمساومات من أجل الوصول الى قرارات تحظى برضى الجميع . وقد نجح رجال الملأ في هذا المجال بصورة ملحوظة بسبب قدرتهم العالية على المساومة والاقناع التي اكتسبوها من مزاولتهم لمهنة التجارة.

أما في حالة اخفاق رجال الملأ في الوصول الى قرار جماعي ، فقد كانت الأغلبية تحاول فرض رأيها على الأقلية بوساطة الضغط الاجتماعي والاقتصادي ، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة عندما عمدت سائر البطون القرشية الى مقاطعة بني هاشم بسبب دفاعهم عن الرسول (ص) ورفضهم التخلي عن حمايته[١١٤] . كما قد يصل الأمر الى حد التهديد باستعمال الحرب وسيلة لفرض الرأي على المخالفين كما حصل في حلف الفضول حينما تعاقد اصحاب هذا الحلف « على ألاّ يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الاّ قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته » .[١١٥]

ان افتقاد حكومة الملأ المكيين لرئيس معترف له بحق الرئاسة على قومه من بعد قصي ابن كلاب ، واشتراط الاجماع في القرارات التي يتخذها رجال الملأ من أجل ان يوافق الجميع على الالتزام بها قد أضعف حكومة الملأ وجعلها عاجزة عن اتخاذ القرارات الحاسمة لمواجهة الظروف الصعبة ، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة في عصر الرسالة.
غير ان ماتقدم ، لم يفقد حكومة الملأ قدرتها على ادارة مكة بصورة ناجحة أوصلتها الى حالة من الأزدهار الاقتصادي والسياسي في القرن السادس الميلادي.

ب . الوفادة :

ان هدف هذه الوظيفة هو استضافة الحجاج في مكة وتوفير الطعام لهم في موسم الحج ولصعوبة قيام شخص واحد باستضافة كافة الحجاج ، فقد دعا قصي بن كلاب قومه ان

(١١٤) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٣٥٠.
(١١٥) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ١٣٣- ١٣٤.

يساهموا معه في تغطية نفقات ذلك . فوافقوا على ذلك « فكانوا يخرجون لذلك كل عام من اموالهم خرجا فيدفعونه اليه ، فيصنعه طعاما للناس ايام منى »(١١٦) .

وقد استمرت قريش على القيام بهذه الوظيفة حتى قيام الاسلام ، حيث روى ان القائم عليها في ذلك الوقت كان الحارث بن عامر من بني نوفل(١١٧) . وكان للرفادة أثر كبير في توثيق علاقات قريش وتحالفاتها مع مختلف القبائل العربية وذلك لأن اطعام الطعام في بيئة شبه الجزيرة العربية الفقيرة كان يعد « فضيلة من أكبر الفضائل التي يتمدح بها العرب ، وينال صاحبها عن طريقها الاحترام والمنزلة الرفيعة . كما ان المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب ، فاذا اطعمت قريش القبائل القادمة الى مكة في موسم الحج فانها تنال بذلك احتراما عاما ومنزلة سامية في نظر هذه القبائل ، كما تعتبر أنها تعاقدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذه المؤاكلة ، وبذلك يصبح في امكان قريش أن تسير آمنة في أراضي هذه القبائل »(١١٨) .

ج . السقاية :

ان الغاية من هذه الوظيفة هي توفير الماء لشرب الحجاج في موسم الحج ، حيث يكثر الناس في مكة ويشح الماء . لذا فقد أولى قصي هذه الناحية عنايته « فصنع حياضا للماء من أدم فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة »(١١٩) .

وان مما له صلة وثيقة بوظيفة السقاية حفر آبار المياه وصيانتها ليتمكن الناس من اشباع حاجاتهم منها . لذا فقد كان نجاح قصي في هذا المجال مأثرة من مآثره الكبيرة ، كما ان قيام عبد المطلب بن هاشم باعادة حفر بئر زمزم بعد أن تولى وظيفة السقاية من المآثر العظيمة التي كان يفخر بها على قومه ، وذلك لأن توفير المياه في بيئة صحراوية كان بمثابة توفير وسيلة الحياة الأولى للناس ، اذ بدونها لايمكن للحياة ان تستمر(١٢٠) .

---

(١١٦) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ١٣٠ .

(١١٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣١٤ .

(١١٨) الشريف : مكة والمدينة ، ص ١١٨ – ١١٩ .

(١١٩) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٧٣ .

(١٢٠) العسلي ، خالد : الاستسقاء عند العرب قبل الاسلام وبعده ، مجلة كلية الامام الأعظم ، بغداد ، عدد ٤ ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥٥١ .

لقد كانت الوظائف الآنفة الذكر هي أهم الوظائف الجديدة التي استحدثها قصي في مكة ومارسها بنفسه كما كانت هناك وظائف أخرى لاتقل أهمية عنها قائمة في مكة وقد تولى ممارستها بحكم رئاسته على مكة وكانت أبرزها الحجابة واللواء. أما الحجابة فكانت تعد من أشرف الوظائف، وذلك لأن القائم عليها تكون لديه مفاتيح البيت الحرام فلا يدخله أحد الا باذن منه. اما اللواء، فكان العلم الذي يحمل في المعارك وتدور حوله الحروب، وهو يرمز عادة لمن تكون بيده قيادة قومه في الحروب والمعارك. وكان قصي هو صاحب اللواء يحمله بنفسه أو يدفعه الى أحد فرسان القبيلة ليحمله نيابة عنه في أوقات الحروب (١٢١).

لقد جمع قصي بيده جميع هذه الوظائف، ومارس صلاحيتها في ادارة شئون مكة من غير منازع، وحين بلغ سن الشيخوخة، وأدركته الوفاة، عهد بهذه الوظائف الى ابنه البكر عبد الدار وقد احترم ابناء قصي الآخرون، وهم كل من عبد مناف وعبد العزى، وعبد، ارادة أبيهم، فلم ينازعوا أخاهم سلطانه طوال حياته، على الرغم من أنهم كانوا يتقدمون عليه بالشرف كما يذكر الرواة (١٢٢)، وربما كان المقصود بذلك الغنى والنفوذ.

غير ان الخلاف لم يلبث ان دبّ بين ابنائهم بعد وفاة عبد الدار، اذ سعى ابناء عبد مناف، وهم كل من عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل الى أخذ مابأيدي بني عبد الدار من الوظائف لأنهم «رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم» (١٢٣).

وقد أدى هذا الموقف الى انقسام قبيلة قريش الى كتلتين متنازعتين تنأهب كل واحدة منها لمحاربة الكتلة الأخرى. وقد تألفت الكتلة الأولى من بني عبد مناف وبني أسد وبني زهرة وبني تميم وبني الحارث. وقد سمي اتباع هذه الكتلة بأصحاب حلف المطيبين، وذلك لأنهم غمسوا أيديهم في اناء مملوء بالطيب عند الكعبة «فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم، فسموا بالمطيبين» (١٢٤). وكان زعيم هذا التحالف عبد شمس بن عبد مناف لأنه أكبر ابناء عبد مناف سنّا على مايذكر ابن اسحاق. (١٢٥)

---

(١٢١) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٢٥، الشريف: مكة والمدينة، ص ٩١٦، ١١٩ — ١٢٠.
(١٢٢) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٢٩.
(١٢٣) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٣١.
(١٢٤) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٣٢.
(١٢٥) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٣١.

أما الكتلة الثانية فقد تألفت من بني عبد الدار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي . فتعاقدوا «وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا ، على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الاحلاف»[١٢٦] . وكان زعيم هذا التحالف عامر بن هاشم بن عبد الدار[١٢٧] .

وبينما كان الناس يستعدون للحرب ، تداعى الناس الى الصلح ، والتخلي عن الحرب الأهلية بين ابناء القبيلة الواحدة من خلال الاتفاق على حل وسط يقضي بأن تعطى قبيلة قريش لبني عبد مناف «السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك ، تحاجز الناس عن الحرب ، ووثبت كل قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله بالاسلام»[١٢٨] .

ويبدو أن هذا الحادث قد لفت انظار قبيلة قريش الى أهمية مراعاة التوازن في توزيع الامتيازات والمناصب الادارية في مكة بين بطون القبيلة من أجل المحافظة على روح الوفاق والوحدة بين الجميع . لذا فقد استحدثوا عشر وظائف أخرى لاتتعدى أهمية بعضها الجانب المظهري او الشرفي في المجتمع .[١٢٩]

د . وندرج في ادناه تعريفا موجزا لهذه الوظائف :

١ . العمارة : وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام ، فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولاترفع فيه الأصوات . ويظهر أن هذه الوظيفة كانت بيد العباس من بني هاشم حينما ظهر الاسلام فضلا عن وظيفة السقاية[١٣٠] .

٢ . الحجابة : وهي قفل البيت الحرام وفتحه للزائرين ، وكانت هذه الوظيفة حينما جاء الاسلام بيد عثمان بن طلحة من بني عبد الدار ، فضلا عن اللواء والسدانة ، وربما الندوة ايضا .

---

(١٢٦) المصنف ، ق ١ ، ص ١٢٢ .
(١٢٧) المصنف نفسه ، ق ١ ، ص ١٣١ .
(١٢٨) المصنف نفسه ق ١ ، ص ١٣٢ .
(١٢٩) الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢٥ .
(١٣٠) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣١٤ – ٣١٥ ؛ الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢٠ .

٢ . الحياة الاجتماعية والسياسية في المدينة :

نشأت مدينة يثرب في منطقة زراعية ، على طريق التجارة الذي يربط اليمن ببلاد الشام .

ويبدو ان توافر وسائل المعيشة في المدينة من زراعة وتجارة قد ألف عامل جذب لاقامة الناس واستقرارهم في المدينة . فقد ورد ذكر يثرب « في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت الى السبئيين بعد زوال مملكة معين » . (١٣٣)

وان اقدم أثر ورد فيه اسم يثرب هو نص الملك نبونيد ملك بابل الذي سكن تيماء وذكر فيه أنه بلغ هذه المدينة . كما ورد ذكرها في جغرافية بطليموس وعند اسطيفان البيزنطي .

وقد ذكرت يثرب باسم المدينة في بعض الكتابات الآرامية . ويظهر أنها عرفت في البداية بمدينة يثرب ثم اختصرت فقيل لها (مدينتا) بالآرامية ، أي المدينة . فلما نزل بها الرسول (ص) عرفت بمدينة الرسول او المدينة (١٣٤) . وقد ذكر القرآن الكريم كلتا التسميتين مع ميل واضح الى تبني اسم المدينة لأنه اقترن بالاسلام (١٣٥) .

ولاتزودنا المصادر بمعلومات دقيقة عن سكان المدينة في تاريخها البعيد لغلبة الطابع الأسطوري عليها . غير ان من المحقق ان المدينة كان يسكنها منذ القرن الخامس الميلادي نفس المجموعات السكانية التي شهدت ظهور الاسلام ، وقيام الدولة العربية الاسلامية في المدينة (١٣٦) . وكانت تتألف من مجموعتين رئيستين ، هما القبائل اليهودية ، والقبائل العربية .

أما اليهود ، فثمة اختلافات واسعة على أصلهم وتاريخ هجرتهم الى المدينة ، فهناك من يرى أنهم عرب تهودوا ، بدليل تكلمهم العربية واكتسابهم الكثير من العادات والتقاليد العربية (١٣٧) . أما الرأي الآخر ، فيرى أصحابه أن يهود المدينة هم من بني اسرائيل الذين أجلاهم الرومان عن فلسطين سنة ٧٠ م (١٣٨) . ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب

(١٣٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .
(١٣٤) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .
(١٣٥) سورة الاحزاب ، الآية ١٣ . سورة المنافقون ، الآية ٨ .
(١٣٦) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٩٢ ، ٣١٤ – ٣١٥ .
(١٣٧) اليعقوبي : تاريخ ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٩ – ٥٥ .
(١٣٨) طنطاوي ، د. محمد سيد : بنو اسرائيل في القرآن والسنة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

للصواب ، بدليل أن يهود المدينة كانوا يعتزون بانتسابهم لبني اسرائيل ويحرصون على المحافظة على عزلتهم عن العرب ، على الرغم من اكتسابهم للغة العرب وتقاليدهم بحكم اقامتهم الطويلة بينهم (١٣٩) .

لقد كان يهود المدينة يتألفون من ثلاث قبائل بعضها مرتبط بتحالف مع الأوس وبعضها الآخر مع الخزرج هي بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، فضلاً عن بعض المجموعات اليهودية الصغيرة . وقد إحترف بنو قينقاع ممارسة الحرف اليدوية والتجارة في سوق المدينة . بينما إنصرف أبناء القبيلتين الأخريين الى ممارسة الزراعة ، مستفيدين من توافر المياه وخصوبة تربة المدينة (١٤٠) .

وتشير المصادر الى أن النظام الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش في إطاره يهود المدينة هو النظام القبلي الذي كان سائداً بين القبائل العربية وقد تحدثنا عنه في الصفحات السابقة ، وربما كان ذلك راجعاً الى طول مدة إقامتهم بين العرب فضلاً عن أن العبرانيين أنفسهم كانوا من شعوب شبه الجزيرة العربية التي تتخذ من النظام القبلي أساساً لحياتها الاجتماعية .

لقد ترتب على التزام اليهود في حياتهم الاجتماعية والسياسية بالنظام القبلي ان ظهرت بينهم العصبية القبلية وعادات الأخذ بالثأر ، وما ينتج عن ذلك من إنقسامات وصراعات تحركها عوامل متنوعة . وقد أدى ذلك الى ضعفهم ، وعدم قدرتهم على رسم سياسة موحدة لهم ، على الرغم من إنتمائهم الى ديانة واحدة . وقد أوردت المصادر العربية من الأخبار عن المنافسات والصراعات التي كانت قائمة بينهم (١٤١) . كما أشار القرآن الكريم الى ذلك في معرض نقده لهم بقوله : ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمائكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من دیارهم ، تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟﴾ (١٤٢) .

(١٣٩) لمزيد من التفصيل يراجع كتابنا : موقف اليهود من العروبة والاسلام في عصر الرسالة ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ١٦ – ١٧ .

(١٤٠) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٩٤ – ٢٩٦ .

(١٤١) العلي : الدولة في عهد الرسول ، ص ١٧٧ – ١٧٩ .

(١٤٢) البقرة ، الآية ٨٤ – ٨٥ .

أما القبائل العربية التي كانت تسكن المدينة فتألف بصورة رئيسة من الأوس والخزرج. ويرجع الاخباريون أصول هاتين القبيلتين الى قبيلة الأزد من اليمن (١٤٣). ويذكر أن سبب هجرتهم عن أرض اليمن هو إنهدام سد مأرب، غير أنهم لا يذكرون تاريخاً محدداً لذلك الحادث الذي أدى الى هجرة كثير من القبائل اليمنية بسبب السيول الجارفة التي غمرت أراضيهم (١٤٤). ويذهب المستشرق جلاسر الى أن ذلك قد حصل بحدود سنة ٤٤٧ - ٤٥٠ م (١٤٥).

ويبدو أن الأوس والخزرج قد إستقروا في المدينة في حدود هذا التاريخ وربما قبله وذلك لأن أسماءهم ولهجاتهم وثقافتهم عند هجرة الرسول ﷺ الى المدينة كانت لا تختلف كثيراً عما لغيرهم في الحجاز وبقية مناطق شبه الجزيرة العربية «الأمر الذي يدل على أن إستقرارهم في الحجاز يرجع الى أزمنة طويلة لدرجة كانت كافية لتركهم آثار الثقافة اليمانية القديمة وتشربهم بثقافة أهل الحجاز» (١٤٦).

إن ما تقدم، يشير الى أن اليهود كانوا أقدم عهداً في الاستقرار في المدينة من الأوس والخزرج مما أتاح لهم فرصة تملك أفضل الأراضي الزراعية وإستثمارها لصالحهم. لهذا فقد إضطر الأوس والخزرج في بداية إستقرارهم في المدينة الى أن يتحالفوا مع اليهود ويعملوا في مزارعهم أجراء، أو أن يتملكوا بعض الأراضي الأقل جودة من الاراضي التي كانت بحوزة اليهود (١٤٧).

لقد كان شعور الأوس والخزرج بالغبن والاستغلال من قبل اليهود سبباً في حصول المنازعات بينهم والتي إنتهت بتغلب الأوس والخزرج على اليهود بعد أن إستعانوا بالغساسنة في الشام الذين كانوا يمتون إليهم بصلة النسب الواحد (١٤٨) ويبدو أن السبب الرئيس الذي رجح كفة الأوس والخزرج في صراعهم مع اليهود وجعلهم يصبحون أسياد المدينة هو أن عددهم كان يفوق عدد اليهود في المدينة بكثير. إذ تشير الأرقام الواردة في المصادر أن عدد مقاتلة اليهود من أبناء القبائل اليهودية الثلاث كان بحدود ألفي مقاتل (١٤٩)، في حين

(١٤٣) إبن هشام: السيرة، ق ١، ص ٩، السمهودي: وفاء الوفا، ج ١، ص ١٧٣.
(١٤٤) المصدر نفسه، ق ١، ص ٩، ١٣، السمهودي: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٦ - ١٧٢.
(١٤٥) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣١٤.
(١٤٦) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص ٣٦.
(١٤٧) السمهودي: وفاء الوفا، ج ١، ص ١٧٧ - ١٧٨.
(١٤٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٨ - ١٨٠.
(١٤٩) الملاح: موقف اليهود من العروبة والإسلام، ص ١١.

وصل عدد المقاتلين من الأوس والخزرج عند تجهيز الجيش الذي توجه لفتح مكة حوالي أربعة آلاف مقاتل (١٥٠) . أي أن عدد مقاتلة اليهود كان يوازي نصف عدد مقاتلة الأوس والخزرج .

لقد كان حرياً بالأوس والخزرج بعد أن تفوقوا على اليهود في المدينة وإضطروهم الى التحالف معهم والدخول في حمايتهم ، أن ينشئوا لهم سلطة سياسية موحدة تمكنهم من تنظيم أنفسهم وتدبير شؤون المدينة كما فعل رجال الملأ في مكة . غير أنهم لم ينجحوا في تحقيق هذا الهدف ، وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا ينتمون الى قبيلة واحدة كما كان الأمر بالنسبة لأهل مكة ، بل كانوا يتألفون من خمس قبائل ، إثنتان منها عربية وثلاث يهودية . ولم تكون العلاقات بين هذه القبائل علاقات ود ووئام بسبب تناقض المصالح الاقتصادية وحدة العصبية القبلية . لذا فقد حفلت كتب التاريخ بأخبار الصراعات والحروب التي كانت تنشب بين القبائل اليهودية أو بين بعض القبائل اليهودية والعربية في أحيان أخرى أو بين العرب أنفسهم كما حصل في بعاث قبل هجرة الرسول ﷺ الى المدينة بخمس سنين (١٥١) .

لقد كان الطابع العام الذي يطبع علاقات الفئات المختلفة من أهل المدينة هو فقدان الثقة المتبادلة بينهم . لذا فقد عمد كل بطن أو عشيرة منهم الى العيش في دائرة منفصلة عن البطن الآخر . وكان زعماء هذه البطون يشيدون لأنفسهم قلاعاً للاستفادة منها في تخزين المؤن والأعتدة الحربية واستخدامها في أوقات الحروب . وكانت هذه الحصون تدعى (الاطام) ومفردها «أطم» (١٥٢) .

إن هذا الواقع لم يسمح لأهل المدينة بتطوير الحياة في مدينتهم لتغدو كتلة متماسكة من حيث ترابط العمران وتماسك السكان . وبقيت الأحياء السكنية فيها متناثرة ومتباعدة بعضها عن بعض ، وتفصل بينها مساحات واسعة من الأراضي والمزارع . ومن ثم فقد كانت المدينة أقرب الى القرى المتقاربة منها الى المدينة الموحدة . لذا فقد أطلق على أهل المدينة وصف «أهل القرى» (١٥٣) .

---

(١٥٠) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٨٠٠ .

(١٥١) للمزيد من التفاصيل ، يراجع : الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣١٥ – ٣٢٣ .

(١٥٢) السمهودي : وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ١٩٠ – ٢٠١ .

(١٥٣) سورة الحشر ، الآية ٧ ، ١٤ ، الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٩٤ .

إن ماتقدم، يفسر أسباب فشل أهل المدينة في تكوين «دولة – مدينة» لهم على غرار ما فعل أهل مكة، على الرغم من أن عددهم كان يفوق عدد أهل مكة كثيراً، وان أرض مدينتهم كانت أفضل من أرض مكة من حيث الخصوبة وتدفق المياه. إن عجز أهل المدينة عن تكوين حكومة ملأ تمثل مجموع القبائل المدنية، وتستطيع الاتفاق على حد أدنى من النظام الذي يضمن سيادة الأمن والاستقرار في المدينة، هو الذي حال دون نشوء دولة – مدينة في يثرب، وجعل سكانها يتطلعون الى خارجها بحثاً عن القيادة التي تجمعهم وتوحدهم، وهو الأمر الذي سيتحقق على يد الرسول الأمين محمد ﷺ (١٥٤).

(١٥٤) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٢٢٨ – ٤٢٩.

ثالثاً : الحياة الثقافية عند العرب :

إن فهم الحياة الثقافية عند العرب قبيل الاسلام وفي عصر الرسالة ، يتطلب الاشارة ولو بصورة مقتضبة الى العمق التاريخي لها . إذ من المعروف أن شبه الجزيرة العربية حسب أرجح النظريات ، كانت موطناً لجميع الأقوام العربية القديمة ، التي نزحت بسبب الجفاف ، واستقرت في العراق والشام منذ الألف الرابع قبل الميلاد وحتى قيام حروب التحرير العربية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين في القرن السابع الميلادي[١٥٥] .

وقد أتيح لهذه الاقوام التي تألفت بصورة أساس من الأكديين والآشوريين والعموريين والكنعانيين والفينقيين والآراميين والانباط تكوين حضارات عظيمة ساهمت في خدمة الانسانية وتقدمها .

كما عرف اليمن ، وهو يشكّل الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب تأسيس دول ، وحضارة راقية ، إستمرت قائمة منذ نشأت الدولة المعينية في حدود سنة ١١١٠ ق . م وحتى القرن الخامس الميلادي حينما سقطت الدولة الحميرية على يد الاحباش . وقد أطلق الرومان على اليمن وصف «العربية السعيدة» وذلك لما حققته من تقدم وإزدهار حضاري خلال العصور القديمة[١٥٦] .

أما وسط شبه الجزيرة العربية ، فإن غلبة الطابع الصحراوي على مناخها قد إضطرت معظم سكانها على المواءمة مع ظروف المناخ وإعتماد حياة البداوة ورعي الابل أسلوباً للمعاش . ولم يكن ذلك بالأمر السهل ، لأن حياة الصحراء تتطلب «درجة عالية من التضامن ، يضاف إليها قدر كبير من إحترام الشخصية ، وتقدير قيمة الأشخاص ، وهكذا تنصهر في أتون الصحراء رواسب الأفعال والمواقف المتخاذلة ولا يبقى سوى الأخلاق النقية الصافية التي تقوم على تقليد سام في علاقات البشر ودرجة عالية من الفضائل»[١٥٧] .

ولم يخل وسط شبه الجزيرة العربية من بعض الواحات التي تساعد على الحياة الحضرية المستقرة ، فنشأت حولها بعض المدن الصغيرة التي إشتغل سكانها بالزراعة والتجارة كما هو

---

(١٥٥) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٣ – ٦ .
(١٥٦) المرجع نفسه ، ص ١١ – ٢١ .
(١٥٧) وات : محمد في مكة ، ص ٥١ .

وقد أشير الى انه لايعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الاّ ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن اميمة ومحمد بن حمران بن ربيعة (٥٠) . غير ان أحد الباحثين قد أحصى اسماء أكثر من سبعة اشخاص قد عرفوا بهذا الاسم قبل الرسول ﷺ ، كما ورد هذا الاسم في نقوش عربية قديمة بصيغ مختلفة ، مثل محمد وحمد ويحمد (٥١) .

ثالثا : حياة محمد ﷺ مع مرضعته :

مكث محمد ﷺ عند أمه فترة قصيرة من الزمن بعد ولادته ريثما يجدون له مرضعة تتولى امر ارضاعه ، وقد ذكر ان اول من ارضعته مولاة لابي لهب تدعى ثويبة «وأرضعت معه ابا سلمة عبدالله بن عبدالاسد المخزومي بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبدالمطلب» (٥٢) ، فكان هؤلاء الثلاثة أخوة لرسول الله في الرضاعة .

وان مما يدعو للتساؤل في هذا المجال عدم اشارة المصادر التاريخية الى قيام «والدة الرسول ﷺ بارضاعه ، واناطة هذه المهمة بغيرها من النساء حتى قبل ان تجد له مرضعة تتولى أمر حضانته وارضاعه . فهل كانت امه آمنة بنت وهب تعاني من بعض المتاعب الصحية التي تمنعها من ارضاعه ، وبخاصة وانها قد توفيت بعد ذلك بسنوات قليلة كما سنوضح ذلك لاحقا .

يقول ابن اسحاق ان عبدالمطلب اخذ يلتمس المراضع لرسول الله ﷺ بعد ولادته (٥٣) . ويروي انه قدم الى مكة بعض المرضعات من بادية بني سعد بن بكر بن هوازن ، يلتمسن الحصول على اطفال لارضاعهم ، وكان عددهن حسب احدى الروايات عشر نسوة (٥٤) . فما من امرأة منهن الاّ وقد عرض عليها رسول الله ﷺ – كما تقول حليمة السعدية – فاذا قيل لها : «انه يتيم ، تركناه ، وقلنا : ماذا عسى ان تصنع الينا امه؟ انما نرجو المعروف من ابي الوليد ، فأما أمه فما عسى ان تصنع الينا؟ فوالله مابقي من صواحبي امرأة الاّ أخذت رضيعا غيري ، فلما لم أجد غيره ، قلت لزوجي الحارث بن عبدالعزى ،

(٥٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٥١) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ٧٦ – ٧٧ ، واجع ايضا : ابن سيد الناس : عيون الاثر ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(٥٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٠٨ .
(٥٣) المغازي ، ص ٢٥ .
(٥٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٠ .

والله اني اكره ان ارجع من بين صواحبي ليس معي رضيع ؛ لأنظر الى ذلك اليتيم فلآخذنه ....»[٥٥].

ان النص الآنف الذكر يشير الى ان ارسال الأطفال مع المرضعات الى البادية كان عادة قرشية تمارسها الأسر الموسرة في مكة. وقد ذكر أن من أسباب هذه العادة حرص أهل مكة على ان ينشأ اطفالهم في جو صحي بعيدا عن الوباء[٥٦]، ومن أجل ان يتعلموا فصاحة اللسان وخشونة العيش، لقد كانت مكة بحكم مركزها الديني والتجاري مدينة يلتقي فيها أناس من قبائل واجناس مختلفة مما يؤثر على لهجات وعادات أهلها[٥٧]، فضلا عن احتمالات نقل عدوى الأوبئة الى ابنائها، فلا غرابة ان تحرص بعض العوائل الموسرة على ارسال اطفالها الى البادية. وربما كان لأصول قبيلة قريش البدوية علاقة بهذه الممارسة حيث بقيت المثل العليا مرتبطة بأجواء البادية على الرغم من اقامتهم الطويلة نسبيا في مكة. وقد روي عن الرسول ﷺ مفاخرا في نشأته في بني سعد وتعلمه لسانهم قوله لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر»[٥٨].

ولاتتفق المصادر في تحديد المدة التي مكثها رسول الله ﷺ في بادية بني سعد لدى مرضعته حليمة السعدية. فقد ذكر ابن اسحاق أن محمدا ﷺ قد بقي في كنف حليمة سنتين، فكان «ينشب شبابا لايشبه الغلمان فوالله ما بلغ سنتيه حتى كان غلاما جفراً — أي الغليظ الشديد —»[٥٩]، فقدمت به على امه. فكانت هذه المرحلة الاولى من اقامته لدى حليمة، وهي في حقيقتها فترة حضانة ورضاعة. ثم ان حليمة اقنعت امه بتمديد اقامته عندها سنة اخرى لأنها «تخشى عليه أوباء مكة»[٦٠]، فوافقت على ذلك، غير ان حليمة لم تلبث سوى شهرين او ثلاثة، حتى اعادته الى أمه، لانها خشيت عليه «الاتلاف والاحداث»[٦١] على حد تعبيرها. وبذلك تكون فترة اقامة الرسول ﷺ في بادية بني سعد اكثر من سنتين بقليل حسب رواية ابن اسحاق.

---

(٥٥) ابن اسحاق: المغازي، ص ٢٦.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٧، السهيلي: الروض الآنف، ج ١، ص ١٠٩.
(٥٧) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص ٢٣٣.
(٥٨) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٦٧
(٥٩) ابن اسحاق: المغازي، ص ٢٧.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٧.
(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٧.

وقد ذكرت بعض الروايات ان اقامة الرسول ﷺ لدى حليمة السعدية قد امتدت الى اربع سنوات(٦٢) ، في حين ذهبت روايات أخرى الى ان الرسول ﷺ قد بقي عند مرضعته خمس سنوات.(٦٣)

وعلى الرغم من أنه لا توجد بين ايدينا قرائن قاطعة لترجيح رواية دون أخرى ، الاّ أن ما وصلنا عن اعتزاز الرسول ﷺ بأن لسانه – أي لهجته – في الحديث «لسان بني سعد بن بكر»(٦٤) ، وأنه كان يرعى الغنم في بني سعد مع أخيه في الرضاعة(٦٥) ، يرجح أن مدة اقامته كانت بحدود خمس سنوات.

ويبدو أن فترة اقامة الرسول ﷺ في بني سعد قد تركت أثراً عميقاً في نفسه ﷺ ، وجعلته يشعر تجاه مرضعته حليمة وأبنائها وكأنه واحد منهم ، وكان ذلك أمراً طبيعياً فقد امتدت معايشته لحليمة وصلته بها اكثر من أمه . أما اخوته من الرضاعة من ابنائها وهم كل من عبدالله وأنيسة وحذافة (المعروفة بالشيماء)(٦٦) ، فقد كانت صلته بهم أعمق من مجرد صلة أخوة بالرضاعة لطول اقامته بينهم ولأنه كان وحيداً ، فلم يكن له اخوة وأخوات من أمه وأبيه .

وقد كان الرسول ﷺ بارا بحليمة بعد بلوغه وزواجه ، فقد ذكر ان حليمة قدمت على رسول الله ﷺ بعد زواجه «فتشكت جدب البلاد وهلاك الماشية ، فكلم الرسول ﷺ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً موضعا للضعينة وانصرفت الى أهلها»(٦٧) .

وحين قدمت عليه الشيماء ضمن وفد هوازن ، رحب بها بحرارة «وعمد الى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه»(٦٨) ، كما أحسن استقبال وفد هوازن الذين جاؤوه بعد هزيمتهم في معركة حنين طالبين أن يرد عليهم سبيهم ، وأموالهم ، وكان مما قاله عمّه من الرضاعة ابو

---

(٦٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٦٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ابن قتيبة : المعارف ، ص ٧٩ ، المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٦٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٦٥) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٧ ، السهيلي : الروض الأنف ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٦٦) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٥ .

(٦٧) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٤ ، ابن القيم : زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٧ .

ثروان : «يا رسول الله انما في هذه المحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك بثديانا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ورأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فآمنن علينا منّ الله عليك». (٦٩) وقد تأثر الرسول ﷺ بهذا الكلام فوافق ان يرد عليهم ما كان له ولبني عبد المطلب وحث بقية اصحابه على الاقتداء به في مساعدتهم فاستجابوا له. (٧٠)

رابعاً : حياة محمد ﷺ مع أمه :

بعد عودة محمد ﷺ من عند مرضعته حليمة السعدية الى أهله في مكة ، عاش الى جوار والدته مدة تقرب من سنة حسب أغلب الروايات (٧١) ، ثم ان أمه عزمت على السفر الى المدينة بصحبة ابنها وجاريتها أم ايمن ، ربما بهدف زيارة قبر زوجها عبدالله هناك ، وتعريف الرسول بأخوال أبيه ومشاهدة قبره.

وحين وصلت الى المدينة نزلت في دار النابغة من بني النجار فأقامت به عندهم شهراً. وقد كان للرسول ﷺ ذكريات حية في نفسه من أثر هذه الزيارة . فكان يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك بعد هجرته الى المدينة ، فقد «نظر الى أطم بني عدي بن النجار فعرفه وقال : كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من اخوالي نطير طائراً كان يقع عليه . ونظر الى الدار فقال ههنا نزلت بي أمي ، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار» (٧٢).

وبعد انقضاء زيارة آمنة بنت وهب للمدينة توجهت عائدة الى مكة بصحبة ابنها وجاريتها ، الاّ انها مرضت في الطريق مرضاً شديداً أدى الى وفاتها في موضع بين مكة والمدينة يدعى الأبواء. وقد دفنت في ذلك الموضع. (٧٣)

---

(٦٩) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٤.

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٥.

(٧١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٨.

(٧٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٦.

(٧٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٨.

وقد عادت أم أيمن بالرسول ﷺ الى مكة وقد أصبح يتيم الأم والأب وعمره لما يتجاوز السادسة على أرجح الأقوال. وتشير المصادر التاريخية الى ان ذكرى هذا الحادث الأليم قد بقيت حية في نفس الرسول ﷺ حتى أنه حين مرّ بقبر أمه في منطقة الأبواء في عمرة الحديبية في السنة السادسة للهجرة وقف عليه وفأصلحه وبكى عنده؛ وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فقيل له، فقال: أدركتني رحمتها فبكيت». (٧٤)

خامساً: حياة محمد ﷺ مع جدّه:

انتقلت العناية بمحمد ﷺ بعد وفاة والدته الى جده عبد المطلب. وكانت تعينه في هذا المجال مولاته وحاضنته أم أيمن. وقد حرص عبد المطلب أن يعوض الرسول ﷺ عن فقدان حنان أمه فضاعف من اهتمامه به وحرصه عليه. وكان من مظاهر هذا الاهتمام، ما ذكره ابن اسحاق من أنه «كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، اذا رأى ذلك منهم: دعوا بني، فوالله ان له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده». (٧٥)

كما ذكر ان عبد المطلب كان يوصي أم أيمن بألا تغفل عن مراقبة الرسول والاهتمام به، حتى أنه قال لها مرة «يا بركة لا تغفلي عن ابني، فاني وجدته مع غلمان قريباً من السبدرة». (٧٦)

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً الاّ قال: علي بابني، فيؤتى به اليه». (٧٧)

وحين حضرت الوفاة عبد المطلب، وكان قد غدا شيخاً كبيراً قدّر الأخباريون سنّه بما يزيد على اثنين وثمانين عاماً (٧٨)، وكان قد فقد بصره (٧٩)، أوصى ابنه أبا طالب بحفظ

---

(٧٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٦ – ١١٧.

(٧٥) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٦٨.

(٧٦) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١١٨.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٩.

(٧٩) الأزرقي: أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٢٣.

رسول الله ﷺ وحياطته[٨٠] ، ربما لأنه كان وعبدالله والد الرسول ﷺ أخوين من أم واحدة[٨١]

لقد كان من الطبيعي أن يتأثر الرسول ﷺ لوفاة جدّه كثيراً بعد أن ذاق في كنفه كل رعاية وحنان . وقد وصفت أم أيمن حالة رسول الله ﷺ عند وفاة جده بقولها : «رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب»[٨٢] . وقد سئل رسول الله ﷺ بعد ذلك ان كان يتذكر موت عبد المطلب فقال : «نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين»[٨٣] .

سادساً : حياة محمد ﷺ مع عمّه :

انتقل محمد ﷺ بعد وفاة جدّه الى دار عمّه ابي طالب وكان اسمه عبد مناف ؛ للعيش في كنفه مع بقية أفراد عائلته . وقد تولى ابو طالب كفالة الرسول ﷺ على الرغم من أنه لم يكن اكبر اخوته ، فقد كان الحارث اكبر منه سنّاً ، ولم يكن اكثر اخوته مالاً ، فقد كان العباس أغنى منه كثيراً[٨٤] . بل ان المصادر التاريخية تكاد تجمع على أن ابا طالب كان لا مال له ، الاّ أنه كان يحب ابن أخيه محمدا ﷺ «حبا شديداً لا يحبه ولده»[٨٥] . لذا فقد رويت عنه العديد من صور الرعاية والعناية التي تعبّر عن هذا الحب . فقد روى أنه كان «لا ينام الاّ الى جنبه ، ويخرج فيخرج معه .... وكان يخصه بالطعام»[٨٦] .

وقد روى أن ابا طالب كان يتجهز للسفر الى الشام في احدى القوافل التجارية لأهل مكة ، فتعلق به رسول الله ﷺ وتوسل اليه أن يأخذه معه بقوله : «يا عم الى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم ، فرق له ابو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه ابداً»[٨٧] .

---

(٨٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٨١) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٧٩ .

(٨٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٨٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٧١ - ٧٦ ؛ جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ١٠٢ .

(٨٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٨٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٨٧) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٥٣ .

وقد اختلفت الروايات في تقدير عمر الرسول ﷺ حينما صحب عمّه في هذه الرحلة ، فقد ذكر الطبري ان عمره كان تسع سنوات ، (٨٨) بينما أورد ابن قتيبة وابن سعد رواية تشير الى ان عمره كان اثنتي عشرة سنة (٨٩) ، وقد أتاحت هذه الرحلة الطويلة للرسول ﷺ على الرغم من صغر سنّه أن يشاهد العديد من القرى والمدن في خارج بلده ، فرأى « بصرى ومدين ووادي القرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لا تقاس بها مكة ، ولا أي موضع آخر في الحجاز وشاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن » (٩٠) . ولابد ان تلك المشاهدات كان لها أثر في توسيع دائرة تفكيره واهتماماته ضمن حدود معينة .

لقد أوردت العديد من المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ كان يعمل في صغره وصباه في رعي الغنم . فقد رعى الغنم في صغره مع أخيه في الرضاعة عندما كان عند حليمة السعدية ، كما أوضحنا ذلك ، كما رعى الغنم في مكة بعد عودته اليها . فقد روي أن الرسول ﷺ قال يوما لأصحابه لقد رعيت الغنم لأهل مكة بالقراريط (٩١) . ويبدو أنه قد مارس هذه المهنة في مكة بعد انتقاله الى بيت عمّه ابي طالب بهدف مساعدة عمه اقتصادياً . فقد أورد ابن اسحاق رواية في هذا المجال تؤكد انه كان في سن الفتوة حينما كان يمارس مهنة رعي الغنم . فقد ذكر ابن اسحاق ان الرسول ﷺ قال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء الاّ ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عزّ وجل فيها . قلت ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن في رعاية غنم أهلنا ، فقلت لصاحبي : تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان ؟ فقال : علي ، قال : فدخلت حتى اذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة . فجلست أنظر ، وضرب الله عزّ وجلّ على أذني ، فوالله ما أيقظني الا مس الشمس . . » (٩٢)

ان النص المتقدم يشير بالاضافة الى ما ذكرنا أن الرسول ﷺ كان فتى جاداً لا تستهويه مظاهر اللهو والطرب التي تستهوي عامة الشباب من قومه . وربما كان ذلك أمراً

---

(٨٨) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٨٩) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٨٨ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٢١ .

(٩٠) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ١٠٦ .

(٩١) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٩٢) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٥٨ ، الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

طبيعيا لشخص نشأ في ظروف صعبة كتلك الظروف التي عاش في ظلها الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى انتقاله الى بيت عمّه أبي طالب.

وان مما يؤكد هذا البعد في شخصية الرسول ﷺ مشاركته في حرب الفجار، وكانت هذه الحرب قد وقعت بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان من هوازن. وقد دخلت قريش هذه الحرب لمناصرة حليفتها كنانة. وكان السبب الذي هاج هذه الحرب أن أحد أفراد قبيلة قيس عيلان تولى حماية قافلة تجارية «لطيمة» تعود للنعمان بن المنذر متجاوزاً في ذلك على حقوق أحد أفراد قبيلة كنانة في حمايتها فقام البراض بن قيس (من كنانة) بقتل عروة الرحال (من هوازن) واستولى على القافلة، فأدى ذلك الى نشوب الحرب. وقد سميت هذه الحرب بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم التي لا يجوز فيها القتال(٩٣). «وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى اذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس»(٩٤). وقد انتهت هذه الحرب بالصلح بين الطرفين.(٩٥)

وقد ذكر أن الرسول ﷺ شارك في هذه الحرب الى جانب أعمامه. وقد روى عنه انه قال: «كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموهم بها».(٩٦) وقد ذكر ابن اسحاق أن حرب الفجار هاجت «ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة»(٩٧)، وقد ذهب الى نفس القول كل من ابن قتيبة(٩٨) والطبري(٩٩) وابن سعد(١٠٠) والمسعودي(١٠١). غير ان ابن هشام يروي أن عمر رسول الله ﷺ كان في ذلك الحين اربع عشرة سنة اوخمس عشرة سنة.(١٠٢) ويبدوان ابن هشام قد قبل هذه الرواية لأنه

---

(٩٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ق ١، ص ١٨٤ – ١٨٦.

(٩٤) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٨٦ – ١٨٧.

(٩٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٢٨.

(٩٦) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٨٦.

(٩٧) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٨٦.

(٩٨) المعارف، ص ٨٨.

(٩٩) تاريخ، ج ٢، ص ٢٨٧.

(١٠٠) الطبقات، ج ١، ص ١٢٨.

(١٠١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٩٤

(١٠٢) السيرة، ق ١، ص ١٨٤.

كان قد ذكر أن دور الرسول ﷺ في هذه الحرب كان مقتصراً على مساعدة اعمامه في القتال وليس مباشرة القتال بنفسه. غير أن أغلب الروايات كما قدمنا تذهب الى أن عمر الرسول ﷺ كان عشرين عاما وأنه قد ساهم بصورة فعلية في القتال الى جانب اعمامه. وقد روى عن الرسول ﷺ انه قال عن يوم الفجار: «قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت». (١٠٣)

ويبدو أن الرسول ﷺ بعد أن بلغ مبلغ الرجال أخذ اهتمامه بالقضايا العامة يتزايد، وأخذ قومه يلحظون في شخصيته هذا الجانب. لذا فانهم حينما اجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان لعقد حلف الفضول — كما أوضحنا ذلك سابقاً — دعوا الرسول ﷺ لحضور هذا الاجتماع، وكان عمره حينذاك عشرين عاماً (١٠٤). وقد كانت مساهمة الرسول في حضور هذا الاجتماع موضع اعتزازه وفخره. لذا فقد روى عنه أنه قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت» (١٠٥).

لقد استهدف حلف الفضول مساعدة «المظلوم حتى يؤدى اليه حقه... وفي التآسي في المعاش» (١٠٦)، وهي أهداف تلتقي مع المثل العليا التي جاء بها الاسلام، فكان من الطبيعي أن يؤكد الرسول ﷺ بعد نزول الرسالة عليه أنه لو يدعى في الاسلام لعقد مثل هذا الحلف فانه سيلبي الدعوة.

كان محمد ﷺ يعيش في بيت عمّه ابي طالب، وكان عمّه كثير العيال، وليس له مال (١٠٧)، وقد حاول الرسول ﷺ في صغره وصباه ان يساعد عمّه فعمل في رعي الغنم لقاء أجور بسيطة «قراريط»، ولابد أن الرسول ﷺ حين جاوز مرحلة الصبا وبلغ مبلغ الشباب حاول ترك مهنة الرعي والاشتغال بعمل يناسب سنّه ويدر عليه ربحا أوفر. وكان المجال الوحيد المتاح له هو العمل في التجارة، مهنة آبائه وأجداده..

---

(١٠٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٢٨.

(١٠٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٨.

(١٠٥) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٣٤.

(١٠٦) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٢٩.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٩.

ولا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات تساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن عمل الرسول ﷺ قبل ان يصل الى سن الخامسة والعشرين ويتصل بخديجة للعمل في تجارتها. غير ان الروايات التي تذكرها المصادر عن الدوافع التي حملت خديجة لتكليفه بالعمل في تجارتها توحي بأنه كان صاحب خبرة في هذا المجال وأنه كان يتمتع بسمعة طيبة، مما دفع خديجة لمحاولة اغرائه للعمل لديها وذلك بدفع أجور تصل الى ضعف ما تدفعه لغيره من الأجراء. يقول ابن اسحاق أنه لما بلغ خديجة «ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت اليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً الى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار».(١٠٨)

ويقدم ابن سعد بعض التفصيلات التي تزيد الصورة وضوحاً، فهو يذكر ان أبا طالب حاول اقناع الرسول ﷺ للعمل في تجارة خديجة مقابل مساومتها على دفع اجور له تصل الى ضعف ما تدفعه لغيره. يقول ابن سعد: «قال ابو طالب: يا ابن أخي، قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين (أي جملين) ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن تكلمها؟ قال: ما أحببت فخرج اليها فقال: هل لك ياخديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع أبكار»(١٠٩) فوافقت خديجة على ذلك من دون تردد.

ان ما تقدم يشير الى ان محمداً ﷺ كان يمارس التجارة في سوق مكة منذ فترة طويلة، وأنه كان قد اكتسب خبرة وسمعة جيدة بين الناس، مما جعله لا يوافق على العمل بأجور موازية لأجور أقرانه من الشباب الذين كانوا يشتغلون في التجارة.

ويبدو أن الذي حمل الرسول ﷺ على الموافقة على تأجير نفسه للعمل في تجارة الآخرين أنه «لم يكن له كبير مال»(١١٠) للعمل فيه وتنميته، كما يذكر الزهري.

وهنالك من الأخبار ما يدل على ان الرسول ﷺ قد شارك غيره في العمل التجاري. فقد روى أن السائب بن ابي السائب قدم على رسول الله ﷺ وكان شريكه قال: «أما تعرفني؟ قال: أما كنت شريكي؟ فنعم الشريك، كنت لا تداري، ولا تماري».(١١١)

(١٠٨) ابن اسحاق: المغازي، ص ٥٩.

(١٠٩) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٣٠.

(١١٠) ابن سيد الناس: عيون الاثر، ج ٦، ص ٧٣.

(١١١) ابن القيم: زاد المعاد، ج ١، ص ٨٣.

الفصل الأول

البيئة العربية للرسول ﷺ والرسالة

كانت شبه الجزيرة العربية هي البيئة الأولى للرسول محمد ﷺ والرسالة الإسلامية . إذ أن تاريخ الإنسان على الأرض هو في جوهرة تاريخ تفاعل الإنسان بأفراده وجماعاته مع البيئة الجغرافية التي يحيا في إطارها .

لذا لابد لنا إن نتطرق لجغرافية شبه الجزيرة العربية وأوضاعها الاقتصادية ، والحقيقة إن المعرفة التاريخية الجديدة بالثقة النسبية لا يتجاوز تاريخها تاريخ أقدم الحضارات التي ظهرت في وادي الرافدين ووادي النيل والتي يرجع تاريخها إلى حوالي أربعه ألاف سنه قبل الميلاد ، ولذا عد المؤرخون اكتشاف الإنسان للكتابة واستخدامه لها في التدوين بداية العصور التاريخية وكان ذلك في حدود سنه ٣٥٠٠ ق . م .

أن ما تقدم يشير إلى ضرورة الحديث عن البيئة الجغرافية قبل التوجه إلى دراسة الإحداث والتطورات التي وقعت في أطار تلك البيئة وتفاعلت معها خلال الحقبة الزمنية موضوع البحث لقد وصف الجغرافيون العرب شبه الجزيرة العربية بصفه جزيرة العرب وذلك لإحاطة المياه بها من جميع جهاتها تقريبا . حيث يحيط بها من الشرق الخليج العربي ومن الجنوب بحر العرب ومن الغرب البحر الأحمر ومن الشمال نهر الفرات ، ومن الواضح إن نهر الفرات لا يشكل حاجزا مائيا طبيعيا بمستوى البحار الثلاثة التي تحيط بشبه الجزيرة العربية ، لذا فانه ليس من الصحيح وصفها بصيغة الجزيرة ، وقد أطلق على شبه الجزيرة العربية هذه الصفة صفه (العربية) استنادا إلى اسم اللغة التي يتكلمها سكانها فقد ذكر الهمداني إن جزيرة العرب استمدت صفتها العربية من لسان أهلها . حيث اللسان العربي في كلها شائع وكان أول من أطلق على مجموع أقاليم شبه الجزيرة العربية اسم العربية هم الإغريق ، إذ أطلقوا على كامل البلاد الممتدة من بادية الشام إلى الفرات في الشرق والمحيط الهندي في الجنوب ، ولا يعرف على وجه التحديد التاريخ الذي عرف به سكان شبه الجزيرة العربية باسم العرب ولكن أول استعمال محقق لكلمة عرب صفه لهؤلاء السكان أو لقسم منهم (البدو) قد ظهر في العصر الأشوري . فقد وردت في رقيم الشمناسر الأشوري الذي قاد سنه (٨٥٤ ق.م) حملة على ملك دمشق وحلفائه وكان بين هؤلاء شيخ عربي ، وهذا مما يدل على إن وصف سكان شبه الجزيرة العربية بالعرب كان شائعا في ذلك الوقت . مما يوحي بأن هذا الاسم قد ظهر

قبل ذلك التاريخ بزمن بعيد نسبيا تقع شبه الجزيرة العربية موطن سيدنا محمد ﷺ في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا ، ولذلك أصبح من المحتم أن تمر طرق المواصلات التي تربط بين آسيا وأفريقيا وأوربا عبر أراضيها وقد كان لذلك التأثير الكبير على السيادة الاقتصادية والسياسية والثقافية في شبه الجزيرة العربية ففي مختلف العصور وفي هذه البيئة الجغرافية والسياسية نشا سيدنا محمد ﷺ في مدينة مكة ، وسط أهله وأعمامه في قبيلة قريش حيث كان جده الأعلى قصي بن كلاب هو سيد قريش وصاحب الرفادة والسقاية في مكة ، وعاش الرسول ﷺ في بداية الأمر في بيت أبيه و عند أمه أمنه بنت وهب وبعد وفاتها في السنة السادسة من عمره انتقل إلى بيت جده عبد المطلب سيد قريش وبعد وفاه جده في السنة الثامنة من عمره انتقل إلى بيت عمه أبو طالب ، وعمل في رعي الأغنام والإبل وعمل في التجارة وخالط كثير من الأحناف . وبعد زواجه من خديجة بدأت تأملاته الفكرية والدينية وبدا التعبد في غار حراء ونزول الوحي في مكة موطن أبائه وأجداده . حيث قبيلته صاحبه السيادة فيها ، فكان لذلك أثره الكبير في قبول الدعوة وانتشارها الأول في مكة ومن ثم بعد الهجرة إلى المدينة أخذت الدعوة تنتشر بين العرب في الجزيرة العربية ، فكان النبي محمد ﷺ من صلب العرب وكان القران نزل بلسان عربي ، وهذا أن دل على شي أنما يدل على عروبة الرسول ﷺ والرسالة الإسلامية .

الفصل الثاني

حياة الرسول محمد ﷺ منذ الولادة وحتى البعثة

ولد النبي محمد ﷺ فجر يوم الاثنين لاثنتي عشر ليلة مضت من شهر ربيع الأول من عام الفيل (٥٧٠ هـ) ، حيث ولد يتيما ، وأمة أمنة بنت وهب وهي إحدى نساء قريش ذات الحسب والنسب وأبوها سيد بن زهرة . وتتفق المصادر التاريخية على عروبة الرسول محمد ﷺ وانتسابه إلى قبيلة قريش العدنانية ، حيث يلتقي الرسول ﷺ بـ(فهر) بجميع بطون قريش وبعدنان بجميع القبائل العربية الشمالية العدنانية .

وكان من أجداد الرسول محمد ﷺ الذين اضطلعوا بدور كبير في حياة مكة قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف ، أما جده المباشر هو عبد المطلب بن هاشم . فأن من الضروري ألقاء بعض الأضواء على حياته ليس بسبب هذه الصفة فقط و إنما لأنه قام للرسول محمد ﷺ مقام الأب والمربي بسبب وفاة الوالد عبد الله .

نشأ عبد المطلب في مدينة يثرب وذلك لان أمه سلمى بنت عمرو من بني النجار ، كانت من أهل يثرب وقد تزوجها هاشم عند أهلها ثم سافر بتجارة إلى غزة وهناك توفي ودفن وحين بلغ عبد المطلب سن الفتوة والشباب قدم عمه المطلب بن عبد مناف إلى يثرب لأخذه إلى مكة ، بعد موافقة أمه على ذلك ، ويذكر أن اسم عبد المطلب كان عامراً ، وقد أطلق عليه أسم شيبه لأنه ولد وفي رأسه شيبه ، كما عرف باسم عبد المطلب بعد مجيئه إلى مكة لأنه حين دخلها خلف عمه المطلب بن عبد مناف قالوا : هذا عبد المطلب فلزمه الاسم وغلب عليه ، وكانت السقاية والرفادة في مكة بيد هاشم ثم المطلب ثم عبد المطلب جد الرسول محمد ﷺ وأنجب عشرة أبناء وكان أصغرهم عبد الله والد الرسول محمد ﷺ وقيل الحمزة ، لأنه بعمر الرسول ﷺ وأخوه بالرضاعة ، وقد تزوج عبد الله من أمنة بنت وهب وبعد مده أرسله والدة لشراء التمر من المدينة وقيل في تجارة إلى الشام وهي الأصح وعند عودته من الشام مرض في الطريق وعندما مروا بالمدينة بقى هناك عند أخواله بني عدي بن النجار فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض فبعث اليه عبد المطلب اكبر اولاده فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة وهو رجل من بني عدي من بني النجار وكان عمره حين وفاته خمسا وعشرين سنه ، ولم يترك عبد الله لدى وفاته سوى جارية تدعي أم أيمن واسمها بركة ، وقد

تولت حضانة الرسول ﷺ وخمسة جمال وقطعه غنم ، ولما ولد الرسول محمد ﷺ أخبرت أمه أمنه بنت وهب جده ، وأخبرته بما رأت عند حملها وولادتها فطلب منها أن تكتم ذلك ، ومكث الرسول محمد ﷺ مع أمه فترة قصيرة من الزمن بعد ولادته ريثما يجدون له مرضعة تتولى أمر أرضاعة وقد ذكر أن أول من أرضعته مولاة لأبي لهب تدعى ثويبة وأرضعت معه أبا سلمه عبد الله بن عبد الأسد المخزومي بلبن ابنتها مسروح وأرضعت معه عمه حمزة بن عبد المطلب فكان هؤلاء الثلاثة أخوه لرسول الله ﷺ في الرضاعة ولا توجد أشارة إلى أرضاع أمه له ، وقد يكون أنها كانت تعاني من مرض معين ، وان عبد المطلب جد الرسول ﷺ أخذ يلتمس المراضع لرسول الله ﷺ بعد ولادته .

ويروى أنه قدم إلى مكة بعض المرضعات من بادية بني سعد بن بكر هوازن يلتمس الحصول على أطفال لإرضاعهم وكان عددهم حسب أحدى الروايات عشرة نسوة . فما من أمرآة منهم ألا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ كما تقول حليمة السعدية ، فإذا قيل لها : (انه يتيم تركناه) ، وتقول حليمة السعدية : " فلما لم أجد غيره قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى : والله أني اكره أن ارجع من بين صواحبي ليس معي رضيع لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه" ، وكانت عملية إرسال الأطفال مع المرضعات إلى البادية عادة قرشية تمارسها الأسر الموسورة في مكة ، وقد ذكر أن من أسباب هذه العادة حرص أهل مكة على ان ينشا أطفالهم في جو صحي بعيد عن الوباء ، ومن أجل أن يتعلم فصاحة اللسان وخشونة العيش .. بقى رسول الله ﷺ عند مرضعته يقال : سنتين ، ويقال : ثلاثة ، ويقال : أربعة ، وجاءت به حليمة السعدية وطلبت تمديد بقاءه فوافقت أمه على ذلك ألا أنها أرجعته بعد فترة شهرين أو أكثر خوفاً عليه وعاش مع أمه في مكة وبعد فترة قدمت به إلى المدينة لزيارة قبر زوجها الذي دفن في دار النابغة وبقيت هناك شهرا ثم رجعت به وفي وسط الطريق بين مكة والمدينة مرضت وتوفيت على أثره ودفنت هناك وجاءت مولاته أم أيمن بالرسول ﷺ إلى مكة فانتقل إلى بيت جده عبد المطلب وهو في السادسة و رعاه رعاية جليلة وعند وفاته أوصى ابنه أبا طالب برعايته وكان أبا طالب يحبه كثيرا فأنتقل إلى بيت عمه أبا طالب وبقى عنده فلما شب الرسول ﷺ عمل في رعي الأغنام والإبل لقريش بالقراويط مساعدتاً لعمه الذي كان كثير العيال قليل المال وأخرجه معه في أحدى المرات في تجارة إلى الشام فرأى الرسول ﷺ بيئة جديدة وشاهد أناس من جميع الأناس.

وبعدها عمل الرسول ﷺ في التجارة مع خديجة بنت خويلد ولما رأت منه الصدق والأمانة عرضت عليه الزواج فوافق فتزوجها وعمره خمسا وعشرين سنه وعمرها أربعين سنه أو أقل من ذلك بقليل على اختلاف الروايات وأنجبت له جميع أولاده ، وبزواج الرسول محمد ﷺ من خديجة انتهت أقامته في بيت عمه أبي طالب فأنتقل إلى بيت زوجته خديجة ، لقد وفر زواج الرسول ﷺ من خديجة للرسول ﷺ حياة الاستقرار والطمأنينة ولم يعد العمل من أجل توفير سبل العيش يقلقه فقد أغنته أموال خديجة عن ذلك وأن كان ذلك لم يصرفه عن العمل.

ولابد انه قد خصص قدرا من وقته لإدارة أموال خديجة والأشراف على تجارتها ولكن لم تصل ألينا إيه أشارة عن قيامة بنشاطات تجارية في مكة أو قيامه بأيه رحلات خارجها منذ تزوج خديجة وبقى معها أربع وعشرين سنه وعاش بسعادة ولم يتزوج عليها.

ولا تزودنا المصادر بأيه معلومات عن حياة الرسول ﷺ العامة منذ زواجه من خديجة وحتى السنة الخامسة قبل البعثة حيث رضت به قريش حكماً لرفع الحجر الأسود ولكن هناك اشارات إلى انه أعطى أغلب وقته إلى العبادة والذهاب إلى غار حراء للعزلة والتأمل إلى أن نزل عليه الوحي وهو في سن الأربعين عام ٦٠٩م ، وأنتقل بعدها إلى التبشير بالرسالة وهداية الناس ، حيث أستمر يدعوا الناس في مكة ثلاثة عشر سنه ، بعدها انتقل إلى المدينة وباشر بناء المسجد النبوي الشريف وإرسال الغزوات حيث وصل عدد غزواته سبعا وعشرين غزوة وبعدها اعتمر مرتين وفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وفي السنة العاشرة للهجرة حج الرسول ﷺ حجة الوداع وهي أول مرة يؤدي فيها هذه الفريضة ، عاد بعدها إلى المدينة فقضى فيها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر ثم قرر أن يبعث أسامه بن زيد على رأس سرية إلى بلاد الشام وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين ، ألا أنه لم يتم أكمال هذه الغزوة حيث مرض و توفي على أثرة في يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنه أحدى عشر للهجرة الموافق ٦٣٢ م عن عمر ناهز (٦٣) سنه وبها انتهى عصر الرسالة ليبدأ عصر جديد هو العصر الراشدي .

الفصل الثالث

الدعوة الإسلامية في موطنها الأول

(٦٠٩م – ٦٢٢م)

درج الباحثون في تاريخ الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة على دراستها في أطار عهدين متكاملين ومتمايزين ، عرف العهد الأول بالعهد المكي وهو يبدأ بنزول الوحي على الرسول محمد ﷺ في (٦٠٩م) وينتهي بهجرته إلى المدينة في سنه (٦٢٢م) ويمتاز هذا العهد بصورة أساسية بعمل الرسول ﷺ الدائب من اجل الدعوة بين الناس بصورة سلمية متحملاً في سبيل ذلك ضروب المضايقة والأذى والاضطهاد ، أما العهد الثاني فهو العهد المدني ، ويبدأ من تاريخ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة في سنه ٦٢٢م وقد تميز هذا العهد بنشأة المجتمع الإسلامي المتميز في المدينة وقيام دولة المدينة تحت قيادة الرسول ﷺ .

ويمكن تقسيم كل عهد من هذه العهود إلى فترات متميزة استناداً إلى الظروف التي مرت بها الدعوة الإسلامية ، والأسلوب الذي اتخذته في مواجهتها لذا يمكن تقسيم العهد المكي إلى مرحلتين رئيسيتين هما مرحلة سرية الدعوة التي بدأت بنزول الوحي على الرسول محمد ﷺ وانتهت بعد ذلك بثلاث سنوات أي في سنه (٦١٢م) أما المرحلة الثانية وهي مرحلة علنية الدعوة ، فتبدأ من سنه ٦١٢ م وتستمر حتى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة سنه (٦٢٢م) .

ويلاحظ فيها أن نزول الوحي على الرسول ﷺ أو تشريع الأحكام والتعاليم الإسلامية قد واكب عملية نمو وتطور الجماعة الإسلامية الناشئة عبر المراحل الأنفة الذكر ، من حيث القلة والكثرة والقوة والضعف كما أخذ بنظر الاعتبار أوضاع المجتمع الذي تعيش فيه وموقف القوى المعادية من الدعوة وأسلوب مواجهتها ، وكانت آيات القران الكريم مراعية لهذه الظروف .

أولاً : مبادئ وتعاليم الإسلام الأولى

كان نزول الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء بمثابة إعلان أولي لثلاثة أركان من أركان العقيدة الإسلامية ، وهي الأيمان بالله تعالى وقدرته والأيمان بان العناية الإلهية قد

اصطفت محمد بن عبد الله ﷺ من بين البشر ليكون رسول الله إلى الناس والإقرار بدور الملائكة (جبريل) في إيصال الرسالة الإلهية إلى النبي محمد ﷺ عبر عملية الوحي .

وقد تولت الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول محمد ﷺ بعد ذلك بيان تفاصيل ترفع العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من مبادئ وتعاليم متنوعة ، وقد ركزت السور المكية التي نزلت في مرحلة سرية الدعوة أنها قد ركزت اهتمامها على توضيح عقيدة المسلمين في الله تعالى وما يجب على الناس القيام به تجاه شكر وعبادة كما تطرقت إلى توضيح مسألة البعث بعد الموت وما يتصل بها من ثواب وعقاب جنه ونار .

وتعامل الخطاب القرآني مع مسالة الأيمان بوجود الله تعالى وقدرته بصفتها من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان ، وقد أنصب أيضاً اهتمام القرآن الكريم في هذه المرحلة على بيان فضل الله على الإنسان ، **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)** (سورة العلق) ، والذي خلق السموات والأرض وما فيها من خيرات ومخلوقات مسخرة لخدمة بني الإنسان ، لذا فقد قرر القران الكريم أن الله هو رب العالمين لأنه خالقهم ومالكهم ومربيهم ، وكذلك التأكيد على وحدانية الله سبحانه وتعالى ولم يلجأ إلى مهاجمة الشرك والمشركين ، وأكدت آيات القران الكريم على مسألة الموت والبعث والحساب والجنة والنار ، وشغل ذلك حيزاً كبيراً من آيات القران الكريم وفرض الصلاة وهي أولى العبادات على المسلمين وقيام الليل ، وهي وسيلة لذكر الله والتقرب أليه وكانت تؤدى في أوقات الضحى والعصر ، ثم فرضت خمس مرات في اليوم . وأكد الدعوة الإسلامية في بدايتها على ضرورة مراعاة التكامل الاجتماعي باعتباره عنصر مهم في وحدة الناس وبقائهم وربط بين النقوى ومساعدة المحتاجين ويظهر من ذلك أن رسالة الإسلام منذ سنواتها الأولى كانت رسالة دينية اجتماعية .

ثانيًا : سرية الدعوة الإسلامية

تؤكد المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ قد سلك طريق التدرج في نشر الدعوة بين الناس ، وأحاط نشاطه في هذا المجال بنوع من السرية التي تضمن له تبليغ الدعوى إلى الأشخاص الذين يتوسم فيهم الاستعداد للتجاوب مع المبادئ والمثل التي جاء بها الوحي ، ويلاحظ أن هذه السرية في نشر الدعوة لم تكن مطلقة إذ أن مشركي مكة كانوا على معرفة بتحركات الرسول ﷺ واتباعه بصورة عامة ، وأنما هي نوع من التأني والحذر وعدم اللجوء إلى مخاطبه الناس بصورة علنية وعامة بالدعوة إلى اعتناق مبادئ الدين

الجديد . وقد أستمر الرسول ﷺ على أتباع هذا الأسلوب في نشر الدعوة مدة ثلاثة سنوات إلى أن أمر بظهور الدعوة ، وتجمع المصادر على أن أول من أمن بالرسول ﷺ زوجته خديجة ثم تختلف في ترتيب الثلاثة الذين امنوا به بعد ذلك وهم كل من علي بن أبي طالب ﷺ وزيد بن حارثة وأبو بكر الصديق ﷺ وقد لعب أبو بكر الصديق ﷺ دوراً كبيرا في نشر الدعوة لكونه صاحب جاه ووجاهة في قريش ، فأسلم على يده الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحه بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف حتى اخذ الإسلام ينتشر بين الناس على يد هذا الرعيل الأول من المؤمنين حتى وصل عدد المسلمين في نهاية مرحلة سريه الدعوة إلى اثنين وخمسين مسلما ومسلمة ، وكانوا يتوزعون على جميع العشائر المكية ، وأنهم كانوا ينتمون إلى فئة الشباب بصورة رئيسية .كما لم يقتصر انتشار الإسلام على فئة دون أخرى من فئات المجتمع فقد انتشر بين الرجال والنساء والأحرار والحلفاء والرقيق . ولم يكن أغلبية المؤمنين من الفقراء والمعدمين ، بل من فئة التجار المتوسطين أو من أبنائهم ، بل أن بعضهم كان من أبناء تجار مكة مثل خالد بن سعيد بن العاص وكانوا يواصلون بنشاطهم في نشر الدعوة عن طريق الاتصالات الشخصية ، كما كانوا يلتقون بالرسول ﷺ في بعض الحالات خارج مكة بعيداً عن ملاحظة المشركين وقد كانوا يؤدون صلاتهم بشكل سري وفي الشعاب ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم مع رسول الله ﷺ .

ثالثاً : علنية الدعوة ومقاومة زعماء المشركين لها

واصلت الدعوة الإسلامية انتشارها بصورة هادئة بين أفراد قبيلة قريش على مدى ثلاث سنوات من تاريخ نزول الوحي على رسول الله ﷺ حتى لم تبقى عشيرة من العشائر المكية ألا وقد وجد الإسلام بين أفرادها من يؤمن به وبناصره ، ومن ثم فقد غدا الانتقال من مرحلة سرية الدعوة التي تعني الحذر والتكتم واعتماد أسلوب الاتصالات الفردية في الإقناع إلى مرحلة علنية الدعوة أمراً ضروريا للوفاء بمتطلبات انتشار الإسلام ، كما أن مبادئ الإسلام ونشاطات المسلمين لم تعد سراً يخفى على أهل مكة ، لذا فقد أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بإعلان مبادئ الإسلام وان يبادئ الناس بأمره ويدعوا أليه فقال له :(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر:٩٤) ، ويبدو أن زعماء المشركين لم يتصدوا لمعارضة الإسلام بعد إعلان الدعوة وقبل ان تنزل على الرسول ﷺ آيات قرآنية فيها ذم لإلهتهم وتسفيه توجههم لها بالعباده ، فكان موقفهم قبل هذا يتسم بالبرود ،

وهكذا أخذت حده المواجهة بين الرسول ﷺ والمشركين من زعماء قريش تزداد وبدأ القران الكريم يوجه النقد الى عقيدتهم مما جعلهم يشعرون بالخطر على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالشرك ورعاية الأصنام ، وهذا العامل المركزي الذي دفعهم لمعارضة الإسلام . طوال المدة العلنية في مكة وخارجها . هكذا يمكن أن نحدد العوامل التي دفعت المشركين لمقاومة الدعوة الإسلامية .

١. العامل الاقتصادي: هو وجود البيت الحرام في مكة ونجاح زعماء قريش في استثمار الحرم المكي ، وان الإسلام سوف يفقدهم هذه الخصوصية ويؤثر ذلك على تجارتهم ويدخلهم في صراع مستمر مع أغلب القبائل العربية المشركة .
٢. العامل الاجتماعي : وقد عد المشركون في مكة تعاليم الإسلام خطراً على نظامهم الاجتماعي .
٣. العامل السياسي : لان أطاعه الله والرسول ﷺ يعني تهديداً قوياً للزعامة القبلية في مكة ويفقد زعمائها خصوصيتهم .

رابعاً : أساليب مقاومة المشركين للدعوة الإسلامية

أن زعماء المشركين الذين تولوا قيادة المعارضة للدعوة الإسلامية في مكة كانوا يتألفون من رؤساء العشائر القرشية ذوي الغنى والشرف والنفوذ ، ومن سار في ركابهم وتعاون من بقية رجال قبيلة قريش ، وقد أتبعوا عدة أساليب لمعارضة الدعوة الإسلامية:

١. استخدام النفوذ العشائري في الضغط على من أمن من أفرادها لحملهم على التخلي عن الإسلام .
٢. محاولة أقناع أبا طالب عم الرسول ﷺ بالتخلي عن حمايته مقابل أعطائه أحد خيرة شبابهم وهو عمارة بن الوليد بن المغيرة عوضاً عنه فرفض أبا طالب عرضهم فانصرفوا عنه .
٣. استخدام أسلوب التهديد بالقتال لأبي طالب أذا لم يمنع الرسول ﷺ عن مواصلة الدعوة ، ويبدو أن أبا طالب قد خشي من عواقب هذا التهديد وطلب من الرسول ﷺ أن يكف عن قول ما يكرهه المشركون ، فأجابه الرسول ﷺ يا عم : " لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه " ، فتأثر أبا طالب بلهجة الرسول ﷺ وجدد له حمايته ومنعته .

٤. مقاطعه بني عبد المطلب وبني هاشم وإصدار وثيقة في ذلك وعلقت في الكعبة .

٥. محاولة المشركين الضغط على بني هاشم وبني عبد المطلب للتخلي عن حماية الرسول ﷺ ومن أسلم منهم للتخلي عن الدعوة .

٦. اتفقت قبائل قريش فيما بينها على من في قبائلهم من المسلمين فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبوهم ويفتنونهم عن دينهم .

٧. التهديد لمن كان له شرف ومنعه وأسلم بالتسفيه والتقبيح .

٨. تهديد من كان له تجاره وأسلم بأكسادها وأهلاك ماله .

٩. ضرب من كان ضعيفا وأسلم مما جعلهم يهاجرون الى الحبشة والمدينة .

١٠. النقد لمبادئ الدين الإسلامي والتشهير بشخص الرسول ﷺ وأتباعه .

خامساً : أبعاد الصراع بين المسلمين والمشركين

إن استقراء آيات القران الكريم التي نزلت في مكة في مرحلة علنية الدعوة تشير إلى أن الصراع العقائدي بين المسلمين والمشركين قد تركز على المحاور الثلاثة الآتية :

١. التوحيد ومقاومة الشرك ، وذلك من خلال الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد والابتعاد عن عبادة الأصنام وأخذ القران الكريم ينتقد المشركين ويأخذ عليهم إهمالهم الاسترشاد بهدي عقولهم .

٢. عقيدة البعث بعد الموت : تشكل هذه العقيدة أحد ألأركان المركزية في العقيدة الإسلامية وأما مشركي قريش فكانوا على نقيض منها أذا لم يكونوا يؤمنوا بهذه العقيدة بتاتاً فحاججوا الرسول ﷺ على ذلك .

٣. الوحي : لم تكن فكرة الوحي غريبة على أذهان العرب ومداركهم ، ألا أن مقاومتهم للرسول ﷺ لم تكن على أساس أنكار فكرة الوحي . وإنما قامت على تكذيب الرسول ﷺ وإنكار أن يكون ما جاءهم به هو وحي أوحاه الله أليه من السماء .

الفصل الرابع

البحث عن موطن جديد للدعوة الإسلامية

أن تطور الأحداث في مكة بعد نجاح المسلمين في الحصول على ملجأ أمن لهم في الحبشة ، وفشل زعماء قريش في حمل العشائر المكية على مواصلة مقاطعتها لبني هاشم وبني عبد المطلب كان يوحي باحتمال تحقيق المزيد من النجاح للدعوة الإسلامية في صراعها مع زعماء المشركين في مكة غير أن وفاة السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) زوجة الرسول ﷺ ووفاة عمة وحامية أبو طالب بعد انتهاء المقاطعة قد ساهمت في زيادة الصعوبات التي تقف في وجه تقدم الدعوة ومن ثم أصبح من الضروري البحث عن سبل جديدة من اجل مواصلة تطور الدعوة وفتح أفاق جديدة لها .

ويبدو أن زعامة بني هاشم قد انتقلت بعد وفاة أبو طالب إلى أخيه أبي لهب وهو اشد أعداء الدعوة الإسلامية . لذا فقد التزم الرسول ﷺ ببيته واقل الخروج إلى قومه ريثما يتدبر أمره في مواجهة الوضع الجديد ، وقد ذكر أن أبا لهب شعر أن من مقتضيات الزعامة لعشيرته أن يتولى أمر حماية الرسول ﷺ فمكث الرسول ﷺ أياما يذهب ويأتي لا يتعرض له احد من قريش وهابوا أبو لهب . إلى أن جاءه عقبه ابن أبي معيط وأبو جهل بن هشام فأخبراه أن الرسول ﷺ يقول أن أباه عبد المطلب سيكون في النار يوم القيامة فكبر ذلك عليه . فقال أبو لهب والله لا برحت لك عدواً أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار فاشتد عليه هو وسائر قريش ويبدو أن بقية أفراد عشيرة بني هاشم قد اتجهوا نحو مسايرة أبي لهب في موقفة من الرسول ﷺ بعد أن تحملوا كثيراً من المشاق خلال فترة المقاطعة ، وبذلك اخذ الرسول ﷺ يفقد الحماية العائلية والعشائرية وأصبح في مكان غير مأمون مما دفعة للبحث عن مكان جديد للدعوة .

أولاً : محاولة نشر الدعوة الإسلامية في الطائف

أن التطورات الأنفة الذكر قد أقنعت الرسول ﷺ بالبحث عن موطن امن للدعوة خارج مكة وكانت مدينة الطائف هي أقرب المدن إلى مكة فقد كانت تقع على مسافة ستين ميلا من مكة وكان سكانها منقسمين على أنفسهم وفيها عشيرتان بارزتان هما بنو مالك والأحلاف فأما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن واما الاحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة ، ويبدو أن الرسول ﷺ قد فكر بالذهاب إلى الطائف للروابط الوثيقة التي كانت تربط أهلها بمكة من الناحية الاقتصادية والسياسية والدينية لذا فقد توجه الرسول ﷺ

الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة به من قومه . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم بهم من الله عز وجل في شوال سنه عشر من حين نبئ رسول الله ﷺ ألا انه لم يحصل على ما أراد وتعرض للاهانة ورجع إلى مكة لكنه لم يستطع دخولها كون أن عشيرته عدت تصرفه هذا نوعاً من الانخلاع . لذا لجأ إلى طلب الاستجارة والحماية من أشرافها فبعد الرفض حصل على استجارة المطعم بن عدي ودخل مكة بسلامه لكن أصبح وضعه محفوف بالخطر وأصبح مركزة ضعيف شانه شأن أي مولى مستضعف .

ثانيا : عرض الدعوة الإسلامية على القبائل العربية

من المعروف أن أبناء القبائل العربية كانوا يقصدون مكة وبخاصة خلال الأشهر الحرم لغرض المتاجرة في أسواق مكة وأداء مراسم الحج فأخذ الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله ويخبرهم انه نبي مرسل ، بل أن الرسول ﷺ ما كان يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ألا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده ، ألا انه لم يحصل منهم على إجابات مشجعه وربما كان ذلك يسبب تكذيب قومه له وتحذيرهم لأبناء هذه القبائل منه .

ثالثاً : بدء انتشار الإسلام في المدينة

أن الانقسام السياسي الحاد بين الأوس والخزرج . والتحدي العقائدي الذي كان يفرضه عليهم وجود اليهود بينهم في المدينة بالإضافة إلى بعض العوامل الاجتماعية والاقتصادية ووجود اخوال والد الرسول ﷺ هنالك من بني النجار ووجود غيره عندهم على ذلك دفع الرسول ﷺ الى عرض نفسه عليهم سنحت لهم الفرصة لذلك وخاصة خلال مواسم الحج خرج الرسول ﷺ في الموسم كما كان يصنع فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فعرض نفسه عليهم وتلا عليهم القران فصدقوه وأمنوا به وكان عددهم ستة أشخاص ، ومما دفعهم إلى ذلك وجود اليهود بينهم في بلادهم ويخبروهم بظهور نبي جديد أظل زمانه فقبلوا دعوته وصدقوا به وأمنوا ولكن لم يستطيعوا دعوته إلى المدينة بسبب الخلاف والانقسام فيما بينهم فوعدوه في الموسم القادم خيراً .

رابعاً : بيعه العقبة الأولى

تمثل بيعة العقبة الأولى خطوة متقدمة على طريق التزام أهل المدينة بقضية الإسلام وعزمهم على تسليم قيادتهم للرسول ﷺ فبعد أن استجاب الكثير من أهل المدينة للدعوة

بعد عودة النفر الستة أليها فلم يبق دار من دور الأنصار ألا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، لذا توجه إلى مكة في موسم الحج من السنة الحادية عشر للبيعة الموافق لسنة ٦٢١ م اثنا عشر رجلا من أهل المدينة كان بضمنهم خمسة من النفر الذين قابلوه وامنوا به في العام السابق ، وكان اثنان منهم ينتميان إلى قبيلة الأوس في حين أن بقية الرجال من قبيلة الخزرج وهذه المشاركة بين قبيلتي الأوس والخزرج تعد نجاحا كبيرا للدعوة لأنها استطاعت التغلب على عامل المنافسة والانقسام بين القبيلتين .

فبايعوا الرسول ﷺ على مجموعة من المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، كما أطلقت عليها فيما بعد وصف بيعة النساء دون فرض القتال ، وقد كانت للرسول ﷺ اتصالات أخرى مع أشخاص في المدينة سهلت عملية انتشار الإسلام وقبوله فيها .

خامساً بيعة العقبة الثانية

حيث اقبل موسم الحج من السنة التالية للسنة التي وقعت فيها بيعة العقبة الأولى أي في سنه (١٢للبعثة) الموافق (٦٢٢م) مشي أصحاب الرسول ﷺ الذين اسلموا إلى مكة وكان عددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرا تين وبايعوا الرسول ﷺ على الأيمان والطاعة ومحاربة من حاربه ومسالمة من سالمه وبالمقابل التزم الرسول ﷺ بهذا الشيء وطلب منهم اثنا عشر نقيباً ليكونوا مسؤولين عن أصحابهم وهو مسؤول عن أصحابه في مكة ودعوته إلى الهجرة إلى المدينة وتعهدوا بمنعته وحمايته وحضر هذه البيعة عن الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب وكان على دين قومه ، وكان ذلك بعد الانتهاء من مناسك الحج .

أن ما تقدم يشير إلى أن بيعه العقبة الثانية قد تضمنت تعهداً من الأنصار لحماية الرسول ﷺ حينما يصل مدينتهم والدفاع عنه كما يدافعون عن أنفسهم وفي المقابل فقد عد الرسول ﷺ نفسه واحداً منهم يتضامن معهم في جميع الأحوال .

أن بيعة العقبة الثانية كانت بداية النهاية للمرحلة المكية من الدعوة الإسلامية لذا شكلت شروط البيعة بداية أسلوب جديد يسمح باستخدام القوة واللجوء الى الحرب في مجاهدة الأعداء وهي بيعة الحرب .

سادساً : الهجرة إلى المدينة

لقد سعى الرسول ﷺ بعد أن تمت بيعه العقبة الثانية مع أهل المدينة في شهر ذي الحجة من السنة الثانية للبعثة على تشجيع أصحابه المكيين للهجرة إلى المدينة قبل أن يهاجر هو بنفسه ، وذلك من اجل توجيه عملية الهجرة والاطمئنان على وصول أتباعه إلى المدينة بسلام واستقرارهم فيها . حيث قال الرسول ﷺ للمهاجرين أن الله عز وجل جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون لها فخرجوا إرسالاً أي جماعة اثر جماعة ، وحالوا ان يحيطوا جوهم بشيء من السرية غير ان المحافظة على سريتها أمر صعب في مدينة صغيرة ، وقد مارس زعماء المشركين الضغط على المهاجرين من الموالي والمستضعفين فحبسوا بعضهم وفتنوا بعضهم وقد ترتبت على الهجرة انقسام أبناء الأسرة الواحدة إذا كانوا مختلفين في العقيدة وبقى رسول الله ﷺ هو والإمام علي بن أبي طالب ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ وبعد أن أتم المسلمين هجرتهم وأحس بتآمر المشركين على قتله ترك الإمام علي ﷺ في فراشة وهاجر هو وأبو بكر الصديق ﷺ واختفيا في غار بجبل ثور أسفل مكة وبقوا هناك ثلاث أيام مختفين يعيشون على لبن الأغنام التي كان يرعاها عامر بن فهيرة مولى أبو بكر الصديق ﷺ ، بالإضافة الى طعام كانت تأتيهم به أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ ، وقد قام أبو بكر الصديق بالأعداد للهجرة بشراء راحلتين وأستأجر دليلاً اسمه عبد الله بن ارقط ليصحبهما في سفرهما وبعدها خرجوا من الغار وسلكوا طريقاً غير مألوف للوصول الى المدينة وبعد ثمانية أيام وصلوا المدينة وهم أربعه اشخاص الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ وعبد الله بن ارقط وعامر بن فهيرة مولى أبو بكر ﷺ في (١١ ربيع الأول) من عام (١٣) للبعثة المصادف ٢٤/ أيلول (٦٢٢م).

لقد كان أهل المدينة يترقبون وصول الرسول ﷺ كل يوم الى مدينتهم وعند وصوله قباء من ضاحية المدينة استقبله المسلمون وكان عددهم خمس مائة مسلم فبدأ عهد جديد من عهود الدعوة الإسلامية حيث كان عدد المهاجرين سبعين رجلاً وعدد من النسوة .

الفصل الخامس

دولة المدينة وتنظيمها الأولى

أولاً : نشأة سلطة الرسول ﷺ في المدينة

لم يتمتع أهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ أليها بوجود سلطة مركزية أو ((حكومة ملأ)) ، تتولى توفير الأمن والاستقرار فيها . وذلك بسبب انقسام أهل المدينة إلى خمس قبائل اثنتان منها عربية وثلاثة يهودية وكانت حده المنافسة بين هذه القبائل كثيراً ما تقود إلى حروب ومصادمات مسلحة بينها كان أخرها حرب البعاث ، حيث لم تشهد مدينة يثرب ظهور دولة مدنية على الرغم من توفر كافة شروط دولة المدينة فيها عدا السلطة الموحدة من إقليم وشعب وسيادة .

وهكذا فأن نشوء دولة المدينة في يثرب قد ارتبط بنشأة سلطة الرسول ﷺ فيها وبخاصة في تقوية وتوسيع هذه السلطة ، بحيث يشمل جميع سكان مدينة يثرب التي عرفت بعد هجرة الرسول ﷺ أليها باسم مدينة الرسول ﷺ أو المدينة ، حيث بدأت سلطة الرسول ﷺ بالنسبة لأهل المدينة على شكل سلطة روحيه تقوم على أيمانهم بأنه رسول الله إلى الناس ومن ثم فأن من واجبهم أن يستسلموا لنا يأتيهم به من أوامر وتوجيهات لان هذه الأوامر هي في الحقيقة أوامر الله سبحانه وتعالى التي لا يجوز لمسلم أن يخرج عليها أو أن يعصبها ، وقد أثبتت بيعه العقبة الثانية سلطة الرسول ﷺ السياسية على من اسلم من أهل المدينة ، وهكذا تدرجت سلطة الرسول ﷺ من سلطه على المسلمين من الأنصار من الأوس والخزرج إلى سلطة خضع لها جميع أهالي المدينة وأصبح هو صاحب السلطة العليا فيها يحكم في أمورها وشرع لذلك عدة تنظيمات .

ثانياً : تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة

كانت المدينة حين قدوم الرسول ﷺ أليها أحوج ما تكون إلى إشاعة الحب والسلام والتعاون بين أهلها في أطار من التقوى وعبادة الله تعالى ، لذا فقد عمل الرسول ﷺ على الدعوة والالتزام بهذه القيم وأشاعتها ، وهو أول ما تحدث به الرسول ﷺ عند وصوله المدينة وقام بإنجاز هذه الأعمال خلال الأشهر الأولى من وصوله المدينة ، حيث عمل على إزالة اسباب العداء بين الأوس والخزرج من خلال تجاوز الخلاف بينهم وأطلق على المجتمع الإسلامي الجديد المهاجرين والأنصار ، وقام بتأسيس مسجد قباء

عند وصوله إليها ونزوله عند الأوس من (بني عمرو بن عوف) حيث قام الرسول ﷺ ببناء جامع المدينة(قباء)الذي أنجز بعد سبعه أشهر من مساكن الرسول ﷺ حوله ومن المبادئ التي جاء بها الإسلام قد خلقت بين المؤمنين بها ومنذ المرحلة المكية روحاً من التعاطف والمودة والتعاون بصفتهم جماعة واحدة تخضع لقيادة واحدة ، وقد حث الرسول ﷺ الأغنياء على مساعدة الفقراء والمستضعفين من المؤمنين ، وبهذا المعنى يمكن فهم ما أوردته الروايات عن حصول مؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم على الحق والمساواة دون الميراث ، وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مقاومة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض اجتماعيا واقتصاديا ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام فلما كانت وقعة بدر أزالت أسباب التآخي بالميراث وبقية بنودها الأخرى سارية المفعول .

ومن الأعمال المهمة والناجحة للرسول ﷺ في المدينة إعلان الصحيفة التي يعتبر بمثابة دستور المدينة والذي ضم أكثر من خمسين فقرة تنظم العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المدينة بين مختلف الفئات التي يتكون منها أهل المدينة وبين الرسول ﷺ بصفته رسولاً ورئيس دولة ، وهكذا قد جعلت الصحيفة أمر إعلان الحرب أو الدخول في السلم من صلاحيات الرسول ﷺ .

إن نجاح الرسول ﷺ في تنظيم أوضاع المدينة العامة على وفق أحكام الصحيفة أدى إلى تكامل شروط ظهور دولة المدينة من الناحية القانونية . وذلك لان كافة أركان الدولة كانت متوافرة فيها وهكذا اصبحنا امام دولة مدينة تتوفر فيها عناصر الدولة من إقليم محدد بأرض المدينة وضواحيها وشعب مؤلف من المهاجرين والأنصار واليهود وسلطة متمثلة بحكومة الرسول ﷺ واستغلال كامل في حكم شعبها وإقليمها وكان يستخدم للتعبير عنها بمصطلح (امة) لعدم معرفة العرب بتسمية الدولة من الناحية القانونية .

الفصل السادس

دولة المدينة والجهاد في سبيل الله

أمضى الرسول ﷺ ثلاث عشره سنه في مكة وهو يدعوا الناس للأيمان بالإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يفكر باللجوء إلى القوة حتى بعد أن لجأت أليها قريش فأخذت تضطهد المسلمين وتعذب المستضعفين منهم ولم تكن دعوة الرسول ﷺ لأصحابه بالصبر على أذى المشركين مردها عدم الأيمان باستخدام القوة عند الضرورة للدفاع عن النفس ، وإنما كان سببها مراعاة الظروف العملية للمسلمين في تلك الفترة ، غير ان موقف الرسول ﷺ من هذه المسألة بدأ بالتغيير حينما نجح في اكتساب تأييد أهل المدينة للدعوة ومبايعتهم له ببيعه العقبة الثانية التي عرفت ببيعة الحرب واخذ القرآن الكريم في أواخر الفترة المكية يهيئ أذهان المسلمين لاحتمال استعمال القوة ضد من يعتدي عليهم ويضطهدهم بسبب عقيدتهم وعدها صفة من صفات الجماعة الإسلامية ، وبعد ذلك نزلت آيات هيأت أذهان المسلمين لرد العدوان وأذنت بقتال المشركين دفاعاً عن حرية العقيدة حيث نزلت أول أيه تأذن بالحرب قولة تعالى : (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**)(الحج : الآية٣٩-٤٠) ، وقد هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة وهم موقنون بأنهم ظلموا من قبل قومهم من مشركي مكة ، وقد أستخدم الرسول ﷺ القوة في توطيد سياسة الدولة الخارجية من اجل عزل قريش عن حلفائها وقد عرفت أعمال الرسول ﷺ في هذا المجال بالسرايا والغزوات.

أولاً : بدء الغزوات والسرايا

ذهب كتاب السيرة النبوية إلى تسميه الحملات العسكرية التي قادها الرسول ﷺ بنفسه باسم ((الغزوات)) في حين أطلقوا على الحملات العسكرية التي عهد بقيادتها إلى غيره اسم ((السرايا)) أو البعوث وكانت أولى هذه الغزوات التي قادها الرسول ﷺ بنفسه غزوة ودان وقد أطلق عليها أيضا غزوة الابواء على رأس اثني عشر شهر من الهجرة .

مما تقدم ان الرسول ﷺ قد اتجه إلى استعمال القوة في السرايا والغزوات لاعتبارات دفاعية عادلة تتصل برد العدوان والسعي لحماية حرية العقيدة ، وإذا كانت هذه الأعمال قد اتخذت طابع الهجوم في بعض الأحيان لأسباب عسكرية ألا أن الدافع المركزي لها هو الدفاع ضد العدوان الذي بدأه المشركون ضد المسلمين وفتنهم عن دينهم . ولذا

أطلق القرآن الكريم على دروب الرسول ﷺ اسم (الجهاد في سبيل الله) ، وكان جميع ما غزا الرسول ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين غزوة منها غزوة ودان وهي غزوة الابواء ثم غزوة بواط ثم غزوة العشيرة ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى ثم غزوة بني سليم ، ثم السويق ثم غطفان ثم بحران ثم احد ثم حمراء الأسد ثم غزوة بني النضير وذات الرقاع وبدر الآخرة ودومة الجندل والخندق وبني قريظة وبني لحيان ثم ذي قرد ثم بني المصطلق ثم الحديبية ثم خيبر ثم عمره ثم القضاء ثم الفتح وحنين والطائف وتبوك قاتل في تسع منها الرسول ﷺ .

ثانياً : معركة بدر ونتائجها

واصل الرسول ﷺ سياسته القائمة على ممارسة الضغط على حرية قبيلة قريش في إرسال قوافلها التجارية إلى بلاد الشام من خلال محاولة التعرض لها والاستيلاء عليها ، لذا فأنه بقي يترقب موعد عودة قافلة قريش التي كانت ذاهبة إلى الشام ، حينما خرج في غزوة العشيرة للتعرض لها .

ويبدو أن حرص الرسول ﷺ على مهاجمة هذه القافلة التي كان يقودها أبو سفيان نابع من أنها اكبر قوافل قريش التجارية فكانت تضم ألف بعير وكانت فيها أموال عظام ولم يبق في مكة قرشي ولا قرشية له مثقال لها فصاعداً ألا بعث فيه في العير ، أن نجاح المسلمين في الاستيلاء على هذه القافلة كان من شانه ان يلحق ضربه قويه بقريش ويعوض المهاجرين عن أموالهم التي صادرتها ويساعد على تحسين أوضاعهم الاقتصادية بصورة واضحة ، لذا فما كانت الأخبار تصل الرسول ﷺ بأن القافلة قد توجهت من بلاد الشام في طريق عودتها إلى مكة حتى سارع الى حث المسلمين للخروج لمهاجمتها فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وعلى الرغم من كل ما تقدم فقد كان عدد الذين لبوا نداء الرسول ﷺ للخروج من المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، وكان خروجه يوم الاثنين لتسعه عشر شهرا للهجرة أي في السنة الثانية للهجرة يريد بدراً وهو موضع ماء يعقد عنده بعض المواسم التجارية يبعد عن المدينة مائه وستون كيلومتراً .

ويبدوا أن المسلمين توقعوا أن يلقوا قافلة أبي سفيان عند بدر ألا أن أبا سفيان سلك طريقاً أخر باتجاه الساحل ونجت القافلة ، وقد خرجت قريش لنجدتها ، وبعد سماعهم بسلامتها دب الانقسام في صفوفهم ، فانسحبت من بينهم بنو زهرة وبنو عدي وساهم بنو هاشم وهم مكرهون وبعض قادة المشركين ساروا وهم غير راغبين في القتال ، ومع هذا

فقد بلغ عدد جيش المشركين حوالي تسعمائة وخمسين رجلاً أي ثلاثة أضعاف عدد أفراد جيش المسلمين ، وحين بلغت أخبار تحرك جيش المشركين لمقاتلة المسلمين الرسول ﷺ وجد انه لم يعد أمامه من خيار سوى الصمود والاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع مشركي مكة وأشاروا عليه الأنصار والمهاجرين بالقتال واستعدادهم لذلك ، فعد الرسول ﷺ الخطة للمعركة وفشلت جميع المساعي لتجنب الحرب ، وبدأت المنازلة بين الجانبين وانتهت المبارزة بقتل كل الخارجين للمبارزة من المشركين عن ذلك تزاحف الطرفان بعضهم تجاه بعض ثم بدأت المعركة وكانت كلمة السر بين المسلمين (احد ، احد) ، وكانت الأهداف التي توخى تحقيقها هي قتل وأصابه اكبر عدد من زعماء المشركين وأشرافهم وقاتل المسلمون تحت قيادة موحدة وأسلوب الصفوف المتراصة ، أما المشركون فلم تكن لهم قيادة موحدة وقاتلوا بأسلوب الكر والفر المألوف عند البدو ، ولم تكن لديهم أهداف واضحة عند اندلاع القتال فلا غرابة أن تلحق بهم الهزيمة ويبدأ المسلمين بمطاردتهم فريقا يقتلون ويأسرون فريقا ، لقد بلغ عدد قتلى المشركين في هذه المعركة سبعين قتيلا وسبعين أسيرا في حين بلغ عدد شهداء المسلمين في المعركة أربعه عشر فقط ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، وقد كان بين قتلى قريش ابرز زعمائهم من رجال الملأ من أمثال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام وأمية بن خلف وابن البختري وغيرهم .

نتائج معركة بدر

١. كانت مسالة الغنائم اولى المسائل التي اثارت الخلاف بين المسلمين حتى نزل قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا وأصلحوا ذات بينكم) (سورة الانفال الاية ٤١) فردت الأمور إلى الرسول ﷺ فوزع الغنائم بالتساوي بين المسلمين .
٢. مفادات الأسرى والعفو عن غير القادرين .
٣. أصبح مركز الرسول ﷺ السياسي في المدينة قوياً بحيث لم يعد بإمكان اليهود والمنافقين والمشركين أن يتحدوا سلطاته التي تقررت في الصحيفة .
٤. ارتفاع مكانة الرسول ﷺ ودولة المدينة بين العرب .
٥. أنها فرقت بين الحق والباطل .

ثالثاً : معركة احد

عمل زعماء قريش على حشد اكبر عدد ممكن من المقاتلين من اجل خوض هذه المعركة لذا فأنهم لم يكتفوا برجال قبيلة قريش وحدها ، بل حاولوا أشراك حلفائهم معهم في القتال وقد لبت ندائهم بصورة محدودة يقول الواقدي : أن قريش خرجت إلى القتال وهم ثلاثة ألاف بمن ضوى أليهم وان معظم رجال الحملة من قبيلة قريش ، وقد اخبر العباس بن عبد المطلب الرسول ﷺ بخبر تحرك قريش ومقدار قوتهم من اجل الاستعداد لملاقاتهم ، فظهر رأيين في المدينة الرأي الأول يقول بمقاتلتهم داخل المدينة والرأي الأخر يقول بالخروج لمقاتلتهم خارج المدينة وقد أيد الرسول ﷺ الرأي الثاني على الرغم من ميلة للرأي الأول ، وخرج لمقاتلتهم على رأس قوة مكونة من ألف رجل في يوم السبت في السابع من شوال في أواخر السنة الثالثة للهجرة ، وقد وصل المشركين إلى مشارف المدينة ، وقد وصل جيش المسلمين الى ارض المعركة قرب جبل احد وانسحب عبد الله بن أبي بثلاثمائة رجل من أصحابه بحجة أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه في مقاتله المشركين في داخل المدينة ، وبهذا بقى عدد المسلمين سبع مائه مقاتل . وكان على رأس قوات المشركين أبو سفيان بن حرب . وقد عد الرسول ﷺ الخطة ووزع الرماة على جبل احد وجبل عينان ، وقد خاض المسلمون المعركة تحت شعار ((أمت ، أمت)) واستطاعوا اختراق صفوف العدو ولكن الرماة تركوا أماكنهم من اجل مشاركة إخوانهم في مطاردة العدو وجني الغنائم ، وبذلك اختلفت خطة المسلمين الحربية مما ساعد المشركين على القيام بحركة التفاف سريعة من خلال الاستيلاء على مواضع الرماة ومحاصرة المسلمين ، وهكذا انقلب النصر إلى هزيمة واضطربت صفوف المسلمين واخذوا يقاتلون من اجل إنهاء المعركة بأقل خسارة ممكنه ، وحين انتهت المعركة كانت خسائر المسلمين في خمسة وستين شهيداً أربعه منهم من المهاجرين والبقية من الأنصار ، ويقال أربعة وسبعين شهيداً وكان منهم حمزة عم الرسول ﷺ ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان أما البقية فكانوا كلهم من الأنصار ، أما قتلى المشركين فكانوا اثنين وعشرين رجلا ، وبذلك كانت نتيجة المعركة لصالح قريش ، وقد أصيب الرسول ﷺ بجراح في وجهه حتى ظن انه قتل ، واستمر يقود المعركة وحوله مجموعة من الصحابة حتى انتهت المعركة غير أن الرسول ﷺ قام في اليوم الثاني لمعركة احد بقيادة جيش

المسلمين وتظاهر بمطاردة قوات المشركين من اجل أشعارهم بقوته من جهة ورفع معنويات المسلمين من جهة أخرى .

رابعاً : غزوة الخندق (حصار المدينة)

أن نجاح الرسول ﷺ في احتواء الآثار السلبية لمعركة احد وقدرته على توحيد الجبهة الداخلية في المدينة تحت قيادته ومن نفوذ دولته بين القبائل العربية وبخاصة تلك القبائل التي تقع مواطنها على طرف تجارة القوافل بين مكة وبلاد الشام مع استمرار سياسة الحصار الاقتصادي على قوافل قريش ، قد حمل القوى المضادة لدولة المدنية على التحالف فيما بينها من اجل شن حرب تستهدف القضاء على هذه الدولة ، وأن زعماء بني النضير الذي أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة اخذوا زمام المبادرة في الدعوة إلى هذا التحالف فذهبوا إلى مكة فدعوا قريشاً إلى حرب الرسول ﷺ ثم ذهبوا بعدها إلى قبيلة غطفان فدعوهم إلى الحرب وهكذا فقد نشأ تآلف هش تمليه عوامل الحقد والمصالح المؤقتة بين يهود بني نضير وقريش وغطفان ومن تبعهم على محاربة دولة المدنية .

لقد استطاعت قوى الأحزاب المتآلفة على تشكيل جيش لمحاربة الرسول ﷺ مؤلف من عشرة ألاف مقاتل ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك شاور أصحابة فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ، فأخذ به رسول الله ﷺ وباشر بحفر الخندق وتم الانتهاء منه خلال ستة أيام في الجهة الشمالية الغربية للمدينة ، وحشد الرسول ﷺ ثلاثة ألاف مقاتل لهذه المعركة ، وقد فوجئت قوات الأحزاب بخطه المسلمين الدفاعية ، واضطروا إلى ان يقيموا خارج المدينة خمسه عشر يوماً وقيل بضعه وعشرين ليلة حيث بدأ الحصار في الثامن من ذي العقدة من السنة الخامسة للهجرة ولم تكن بينهم حرب ألا الرمي بالنبل والحصار وكانت حصيلتهما استشهاد ستة من المسلمين ومقتل ثلاثة من المشركين ، وانتهت هذه الحملة بالفشل ولم يستطيعوا بعدها على مهاجمة دولة المدينة .

من أهم الأسباب التي أدت إلى انسحاب الأحزاب

١. انهارت أسس التعاون بين اليهود والمشركين .
٢. أن توقيت الحملة بالنسبة للمشركين كان خاطئاً .
٣. كان المشركون في وضع غير مريح عسكرياً بسبب طبيعة الأرض الجرداء .
٤. كان المناخ بارداً عاصفاً .
٥. عانت قواتهم من قلة المئونة وشحتها وبخاصة ما تحتاجه خيولهم وجمالهم من أعلاف .
٦. القلق والانتظار والترقب الذي ساد معسكر المشركين .

الفصل السابع

امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

كان فشل الأحزاب في غزو المدينة دليلاً على انه لم يعد بإمكان قريش أو غيرها من القبائل العربية في الحجاز غزو المدينة والتغلب عليها في ساحات القتال وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة بصورة جليه حينما خاطب أصحابه بقوله لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم غزوتم ولم تغزهم بعد ذلك وكان هو الذي يغزوها .

ويستنتج من استقراء نشاطات دولة المدينة بعد فشل الأحزاب في غزو المدينة وحتى وفاه الرسول ﷺ أن الهدف الذي توخت تحقيقه هو العمل على هداية أبناء الأمة العربية إلى الإسلام وتوحيدهم في أطار دولته مع الحرص على إيصال مبادئ الإسلام إلى الأمم الأخرى . من خلال الاستخدام المرن للقوة المتمثلة في الغزوات والسرايا الى جانب الوسائل الدبلوماسية في الدعوة و الحوار والتحالف مع مختلف القوى والقبائل الموجودة في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها وتصفيه الحسابات مع الفئات التي شاركت في غزو المدينة كي لا تحدثها نفسها مره ثانية مع العمل على كسبها إلى جانب دولة المدينة في خاتمة المطاف ووسع الرسول ﷺ نشاطه في شمال المدينة مع القبائل التي تسكن هناك لكسب الى جانبه واستمرار فرض الحصار على تجارة مكة ، ومن ثم الدخول في صلح مع قريش في مكة الذي عرف بصلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة.

أولاً : صلح الحديبية (٦هـ)

في شهر ذي العقدة من السنة السادسة للهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة ومعه حوالي ألف وأربعمائة من أصحابه متجها إلى مكة معتمرا لا يريد حرباً وساق من سبعين من الجمال لتقديمها أضاحي عند المسجد الحرام ، وعند وصوله إلى الحليفة احرم وكبر واحرم معه المسلمين ، وعند وصوله عند ثنيه المرار قرب الحديبية بركت ناقته فقال لأصحابه لقد حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم ألا أعطيتهم إياها .

وهكذا فقد عمل الرسول ﷺ على منع كل ما من شأنه أن يحول خطته عن هدفها المرسوم ويحرضها باتجاه الحرب . لذا فقد أرسل فراس بن أمية الخزاعي إلى قريش فأهانوه وأرادوا قتله ، ورجع إلى الرسول ﷺ وبعثوا أصاحبهم إلى عسكر الرسول ﷺ

ورموه بالنبل والحجار وأسرهم الرسول ﷺ ولكن سياسة الرسول ﷺ السلمية والقائمة على تعظيم حرمات مكة أثرت في حلفاء مكة من خزاعة والاحابيش مما اضطر قريش إلى الدخول في مفاوضات مع الرسول ﷺ فبعثت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي الذي عبر له عن إصرار قريش على عدم السماح له بدخول مكة غير أن الرسول ﷺ بين له حقيقة أهدافه ، ثم عرض على قريش عرض هدفه ، وقد قام الرسول ﷺ بإرسال عثمان بن عفان ﷺ إلى قريش وقامت قريش بإرسال سهيل بن عمرو وعقد الصلح بين الجانبين لمدة عشر سنوات على أن يعود الرسول ﷺ في عامه هذا ويعود في العام المقبل .

ثانياً : التوجه لقتال خيبر وحلفائها في الشمال (٧هـ)

بعد أن نجح الرسول ﷺ في توقيع صلح الحديبية مع قريش أنفسح المجال إمامه لتصفية حسابات غزوة الأحزاب مع يهود خيبر الذين لجأ أليهم يهود بني النضير وعملوا من هناك على تجميع مختلف القوى المعادية للإسلام لمحاربة الرسول ﷺ والقضاء على دولته ، وكانت خيبر تبعد مائه ميل عن المدينة ولم تكن مقاتلتهم بالأمر السهل ، ولم يكونوا معزولين عن الوسط الذي يعيشون فيه فكانت لهم أحلافهم مع يهود فدك ووادي القرى وتيماء فضلا عن علاقتهم مع قبيلة غطفان القوية التي سبق لها محاربة المسلمين في غزوة الاحزاب . وحاولوا تنظيم غزوة لمهاجمة المدينة بعد فشل الأحزاب ومعاقبة الرسول ﷺ ليهود بني قريظة . ولكن لم يتفقوا في النهاية ، مما جعل المبادرة بيد الرسول ﷺ فبعد شهر من صلح الحديبية سار الرسول ﷺ في شهر محرم من السنة السابعة للهجرة إلى خيبر في ألف وأربعمائة مقاتل وقطع المسافة بين المدينة وخيبر بسرعة وهاجم اليهود في خيبر صباحاً وأستمر القتال شهراً سقطت فيه الحصون الواحد بعد الأخر واضطر اليهود إلى طلب الصلح فأجابهم الرسول ﷺ إلى ذلك ويرجع انتصار المسلمين على اليهود في خيبر إلى عدة عوامل :-

١. وحدة القيادة وتعاونها
٢. ارتفاع معنويات المسلمين أثناء القتال بسبب عامل الأيمان .
٣. نجاح المسلمين خلال الحرب بقطع المياه عن حصون اليهود
٤. حرق مزارع اليهود مما اضعف معنوياتهم وحملهم على الاستسلام .

لقد أعطيت شروط الصلح للرسول ﷺ حق أجلاء اليهود عن أراضيهم ولكن الرسول ﷺ تركهم في مزارعهم مقابل دفع نصف الحاصل للمسلمين .

ثالثاً معركة مؤتة (٨هـ)

في السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول ﷺ كعب بن عمير مع مجموعة من المسلمين إلى ذات اطلاح في بلاد الشام وتصدى لها حكام الشام وقتلوا جميع أفرادها ألا جريح واحد وصل إلى الرسول ﷺ فشق عليه ذلك ، وهم بالبعث أليهم غير أن الواقدي يقول أن السبب المباشر لإرسال حملة عسكرية إلى مؤتة هو مقتل الحارث بن عمير الذي بعثه الرسول ﷺ إلى ملك بصرا بكتاب فلما نزل مؤتة قتله شرحبيل بن عمرو الغساني فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأشتد عليه وندب الناس واخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف وبذلك بدأ الاستعداد لمعركة مؤتة وتالف جيش المسلمين الذي بعثه الرسول ﷺ الى مؤتة في جمادى الأول سنه ثمان للهجرة من ثلاثة الآلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثه ، فأن أصيب فجعفر بن أبي طالب فأن أصيب فعبد الله بن رواحه فبلغ العدو خبرهم فنزل هرقل مأب بمائة ألف ، ومائة ألف مقاتل حلفائه ، وأشتبك المسلمين والروم في موضع يدعى مؤتة فأستشهد اثنا عشر من المسلمين واستشهد القادة الثلاثة حتى تولى خالد بن الوليد الراية وانسحب إلى المدينة أن فشل حملة مؤتة لم تؤثر على المسلمين ، حيث أرسل الرسول ﷺ حملة إلى ذات السلاسل لمقاتلة القبائل التالية التي شاركت في قتال مؤتة ضد المسلمين وهكذا استطاع الرسول ﷺ أن يشعر القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية والشام بقوة ووجود الدولة الإسلامية .

رابعاً : سيادة الإسلام في مكة (فتح مكة ٨هـ)

أن القران الكريم قد عد صلح الحديبية فتحا مبينا لما ترتب عليه من نتائج ايجابية في مختلف المجالات ، وقد انعكست أثار ذلك على أوضاع مكة الداخلية ومواقف أهلها من الإسلام إذ أدرك العديد من رجالها البارزين ضرورة التخلي عن معارضة الدعوة والدخول في الإسلام وابرز مثال على ذلك هجرة كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة إلى المدينة ومبايعتهم للرسول ﷺ على الإسلام في سنة ثمان للهجرة ويلاحظ أن الرسول ﷺ كان يرحب بالمسلمين الجدد من أهل مكة ويغض الطرف عن مواقفهم السابقة من الإسلام ، إذ كان يعلن أن الإسلام يجب ما كان قبله : ومن ثم فقد كان يعهد أليهم بالمسؤوليات التي تتناسب مع قابليتهم ومكانتهم مما كان يشجع الآخرين على التخلي عن المعارضة والإقبال على الدخول في الإسلام بحماس ، وبدأ عدد الراغبين من أهل مكة في الاتفاق مع الرسول ﷺ يزداد وبخاصة بين الفئة المتنفذة ،

وينذر باحتمال حصول انقلاب في موقف بعض رجال الملأ من أمثال أبي سفيان وحكيم بن حزام وغيرهم ، لذا فقد رأى بعض رجال مكة المتشددين نقض صلح الحديبية وأذكاء روح الصراع مع المسلمين قد يساعد على وقف هذه التحولات واستغلوا نشوب الحرب بين قبيلة بكر حليفة قريش وقبيلة خزاعة حليفة الرسول ﷺ فدعموا بكر بالمال والرجال والكراع واستنجدت خزاعة بالرسول ﷺ فخرج الرسول ﷺ في عشرة الآلاف مقاتل وعسكر قرب مكة فخرج أليه أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي وساعدهم العباس عم الرسول ﷺ للوصول إلى الرسول ﷺ وأعلنوا أسلامهم وطلب منهم الرسول ﷺ تسهيل مهمة دخول الجيش الإسلامي بدون حرب فلعبوا دوراً في ذلك ودخل المسلمون مكة بدون قتال ، ألا مجموعة صغيرة يقودها أبو جهل وصفوان بن اميه وسهيل بن عمرو وعالج موقفهم خالد بن الوليد باستخدام القوة ، ودخل الرسول ﷺ مكة وطاف في الكعبة وحطم الأصنام وترك الوظائف لأصحابها وبقى فيها خمسه عشر يوماً وولى عليها عتاب بن اسيد بن أبي العيص بن أمية الذي اسلم أثناء الفتح وينتمي إلى عائلة حرب صاحبة القرار في مكة وفرض له راتباً يومياً كل يوم درهم وذلك في عشرة رمضان سنه ثمان للهجرة الموافق (٦٣٠م) .

خامساً : معركة حنين وحصار الطائف (٨هـ)

بينما كان الرسول في مكة بلغته أنباء عن استعداد قبيلة هوازن وثقيف لمحاربته ، فأرسل عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي أليهم ليعلم خبرهم ، فعاد إلى الرسول ﷺ وأخبره باستعداداتهم وتهيؤهم للحرب حيث جمعوا عشرين ألف مقاتل بقيادة مالك بن عوف وتوجه إلى مكان من أوديه تهامة يدعى حنين ، فتحرك الرسول ﷺ في اثنا عشر مقاتل إلى ارض المعركة في ستة شوال سنه (٨هـ) ودارت المعركة في بدايتها لصالح اليهود ومن ثم تحول الموقف لصالح المسلمين وانكسر اليهود تاركين أموالهم ونسائهم وأولادهم وتابعهم الرسول ﷺ إلى الطائف وفرض عليها حصار لمدة عشرين يوماً ، فلم يجد نفعاً فأنسحب وقسم الغنائم وعاد إلى المدينة ، واستطاع أن يكسب قلوب زعماء هوازن وعلى رأسهم مالك بن عوف فدخلوا الإسلام وأحسن أسلامهم ، ومن ثم دخلت ثقيف الإسلام من العام التالي ، فأصبحت المدينة ومكة والطائف النواة التي ستتوحد على يدها باقي مدن الجزيرة العربية .

سادساً : غزوة تبوك (٩هـ)

في السنة التاسع للهجرة بلغت الرسول ﷺ أخبار عن استعداد الروم لمهاجمة المسلمين عن طريق تجار الانباط وأنهم قد عسكروا في البلقاء فجهز الرسول ﷺ أليهم ثلاثون ألف مقاتل وأعلن هدفه مقاتله الروم ، وكان العرب يخافون الروم لبعد المسافة وشدتهم في القتال وأثار معركة مؤتة عليهم ، فأراد الرسول ﷺ رفع معنوياتهم فسار بهم وعسكر في تبوك الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية والخاضعة لنفوذ البيزنطيين ، وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل واسر اكيدر بن عبد الملك وكان من كندة قد ملكهم وصالحة على الجزية ويبدوا أن وجود الرسول ﷺ على رأس جيشه في تبوك قد اثر في نفوس أهالي المستوطنات والقرى الموجودة هناك فقرروا تقديم الولاء للدولة الإسلامية بعد أن كانوا يؤدونه للإمبراطورية البيزنطية ، فكاتبهم على جزية معلومة ومكث الرسول ﷺ عشرين ليلة وهرقل يومئذ في حمص لم يتحرك لمهاجمة المسلمين عاد الرسول ﷺ بعدها إلى المدينة في رمضان بعد أن أمضى بعيداً عنها حوالي شهرين وكانت حملة تبوك أكبر وأخر حملة قادها الرسول ﷺ بنفسه قبل وفاته أنصرف بعدها إلى استقبال الوفود وإرسال الوفود إلى القبائل في أنحاء الجزيرة العربية والى الملوك وحكام البلاد المجاورة يدعوهم إلى الإسلام ، وأصبح الرسول ﷺ هو صاحب السلطة في الجزيرة بدون منازع .

سابعاً : عام الوفود (٩هـ)

بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك تزايد قدوم وفود القبائل العربية إلى المدينة لمبايعة الرسول ﷺ والدخول في الإسلام حتى أطلق المؤرخون على تلك السنة سنه الوفود ولأن وفود العرب جاءت إلى الرسول ﷺ من كل وجه من جميع القبائل وان سبب هذا الإقبال الشديد دخول مكة في الإسلام ، وقد قدمت هذه الوفود إلى المدينة بصورة طوعية ، وكان أفراد الوفود يتكلون باسم قبائلهم ، وبذلك كانت البيعة تلزمهم وتلزم قبائلهم ، وكانت الوفود تعلن أسلامها أمام الرسول ﷺ ، وكان الرسول ﷺ يقبل منهم ويكرهم ، ولم يكن هدف جميع الوفود الدخول إلى الإسلام وإنما جاءت بعض الوفود لطلب الحصول على الحماية وعقد المعاهدات كما فعل وفد نصارى نجران مقابل أداء مبلغ من المال إلى المسلمين ، وقسم من الوفود جاء لطلب امتيازات سياسية مقابل الدخول في الإسلام كما فعل عامر بن الطفيل ، ألا أن الرسول ﷺ رفض ذلك لحرصه على وحدة السلطة

ومركزيتها وعلى المساواة بين المسلمين من جهة أخرى ، وهكذا انتشر الإسلام في الجزيرة العربية بشكل واسع مع احتفاظها بنظمها وقيمها وديارها .

ثامناً : حجة الوداع (١٠هـ)

خرج الرسول ﷺ من المدينة في ٢٥ ذي العقدة سنه (١٠هـ) لأداء فريضة الحج هي أول مرة يؤدي فيها الرسول ﷺ هذه الفريضة وكان الرسول ﷺ قد أذن الناس بذلك فقدم المدينة بشر كثير من القبائل وأشرافها ، فخرج الرسول ﷺ إلى مكة حتى وصلها في (٤ذي الحجة) سنه (١٠هـ) وقد قام الرسول ﷺ في هذه المناسبة لتعليم الناس كيفية أداء مناسك الحج وتعريفهم بأمور دينهم فألقى فيها خطبته بعرقه التي أوضحت معالم الإسلام ، وكان بدايتها موادعة وأوسطها ، أسلام وأخرها أبلاغ ونزلت على الرسول ﷺ فيها الآية : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(المائدة :الآية٣) . ووصف بحجة البلاغ . لان الرسول ﷺ قال في نهايتها ((اللهم هل بلغت)) كما كان المسلمون يسمونها ((حجة الاسلام)) لانها اول مرة يحج فيها المسلمون لوحدهم دون ان يحضرها اي مشرك وقد اشتهرت هذه الحجة بين الناس بعد ذلك باسم ((حجة الوداع)) . لان الرسول ﷺ قد ودع فيها امته قبل وفاته فكانت حجته الاولى والاخيرة .

تاسعاً : نهاية عصر الرسالة

عاد الرسول ﷺ بعد أداء فريضة الحج إلى المدينة فقضى فيها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر ثم قرر أن يبعث أسامة بن زيد إلى بلاد الشام على رأس سرية ، وان يوطئ السبلقاء من أرض فلسطين ألا أن مرض الرسول ﷺ عطل خروج الحملة ، وفي هذه الإثناء ظهر نشاط الأنبياء الكذابين فغلب مسيلمة على اليمامة والأسود على اليمن وطلحة بن خويلد بسميراء .

ولقد بدأ وجع الرسول ﷺ في أواخر صفر من سنة (١١هـ) وأستمر خمسه عشر يوماً حتى توفي الرسول ﷺ في يوم الاثنين (١٢ ربيع الأول) سنه (١١هـ) ، وهكذا انتهى عصر الوحي والرسالة بوفاة الرسول ﷺ الذي طبع ذاك العصر بطابعه ليفسح المجال أمام أصحابه ليبدعوا عصراً جديداً يسترشد بهدي المبادئ التي جاهد طويلاً من أجل ترسيخها في نفوسهم وعلى ربوع أرضهم التي شرفتها رسالة السماء .